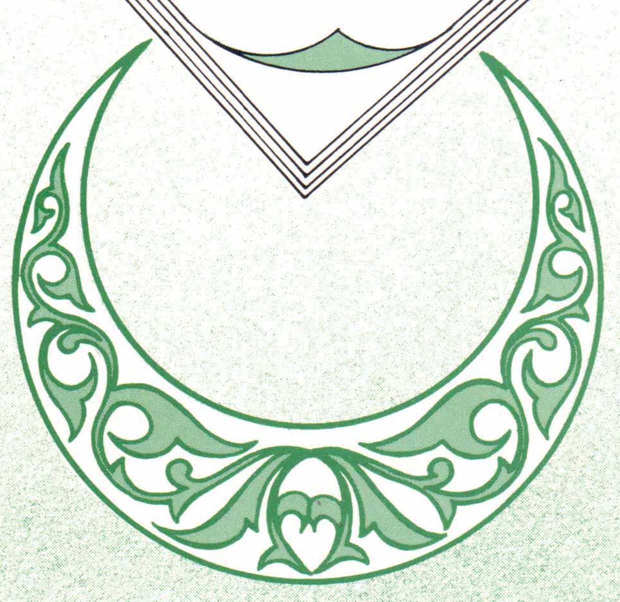
في الأدب الإسلامي

تجاربُ .. ومواقِف



الدكتور

محمّد عادل الهاشمي

دار المنارة
بيروت

دار القلم
دمشق

تطلب جميع كتبنا من

دار القلم دمشق: ص.ب ٤٥٢٣ ت: ٢٢٩١٧٧

دار المنارة بيروت ص.ب ١١٣/٦٥٠١

توزّع جميع كتبنا في السعودية عن طريق

دار المنارة للنشر

جدة ـ السعودية

ص.ب ١٢٥٠، ت: ٦٦٠٣٢٣٨ـ٦٦٠٣٦٥٢

تلكس: ٦٠٣٠٦٧ عمران أس جي


في الأدب الإسلامي
تجارب..
ومواقف

في الأدب الإسلامي

تجاربُ .. ومَواقِف

(١)

الدكتور

محمّد عادل الهاشمي

دار القلم
للطباعة والنشر والتوزيع
دمشق

دار المنارة
للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت

الطبعة الأولى
١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م

دار القلم
للطباعة والنشر والتوزيع دمشق - حلبوني - ص. ب.: ٤٥٢٣ - هاتف: ٢٢٩١٧٧
دار المنارة
للطباعة والنشر والتوزيع بيروت - ص. ب.: ١١٣/٦٥٠١.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد ﷺ، والرضا عن الصحابة والتابعين، ومن سار على هديهم وسبيلهم.. وبعد:

منذ ثلاثة عقود خلت، وأنا أذرع المصادر الشعرية والروائية، بحثاً عن الكلمة المتأدبة المؤمنة، يجلوها لنا الأديب المسلم في عصرنا القلِق - الذي اختلطت فيه الأفكار - كلمةً بانية هادية، محمّلة بالإيحاء، ناسمةً بالعطر، مثقلةً بمعاني الخير والعطاء، من خلال التصور الإسلامي للوجود والحياة. وألفيتُ طِلبتي في دواوين شعرية، ومجموعات قصصية، وروايات، ومسرحيات - فضلاً عما ذخَره لنا أدَبُنا القديم من نتاج - تحمل إلينا تيار الأدب الإسلامي جياشاً، متدفقاً، حافلاً بأطايب القول..

وألفيت نفسي على هذا الطريق الخصيب، أسهم في تأصيل بناء الأدب الإسلامي، وأقصر عليه جهدي خلال العقود الثلاثة الماضية، فأقدِّم إليه أول موضوع - على مستوى التخصص الجامعي - يستقبله الوسط الأدبي، يرود آفاق الإنسان في الوجود، ويرسي قواعد إنسانية الإنسان، من خلال نتاج الأدب الإسلامي، الذي رعى، في الزمن القديم والمعاصر، حقيقة الإنسان، وأولاها اهتمامه. ذلكم كتاب «الإنسان في الأدب الإسلامي.. تأصيل وتحليل».

في خضمّ هذا الاهتمام الذي ألفيتُ رَجْعَه في الناشئة المؤمنة التي استقبلت الأدب الإسـلامي بلهفة واحتفـاء، وجـدت من واجبي ـ بحكم اختصاصي في الأدب الإسلامي ـ أن أجلو عدداً من القضايا والحقائق لقراء الأدب الإسلامي، الذين ما فتئوا يواكبون الأبحاث والمقالات التي أكتبها في مجلة «المجتمع» الكويتية وسواها، ويراسلونني مسترشدين آفاق الأدب الإسلامي وحقائقه، فقد وجدتهم، في اندفاعهم وظمئهم، يتناولون أي كتاب أو بحث يحمل عنواناً في الأدب الإسلامي، فرأيت أن أوضح للناشئة المخلصة التي أحبت هذا الأدب، وشُغِفَتْ بآفاقه، أن الأدب الإسلامي ـ في سماته النقدية ـ شيء جديد، لا تُجْزِئُ فيه الفورة الحماسية العابرة، ولا الثقافة الأدبية التقليدية، وإنما يتطلب نظراً موضوعياً على أساس من التخصص والتمرس.

والموضوع الجديد ـ كالأدب الإسلامي ـ يحتاج بطبيعته إلى التأصيل والتدقيق من خلال خلفية مبصرة متخصصة. لذا كان بحثُ غير المختصين في الأدب الإسلامي مثار حيرة واختلاط لدى القارىء وناشد الاطلاع على آفاق الأدب الإسلامي. وهذا ما حدا بي ـ وأنا لا أملك سوى التأصيل والتوعية ـ أن أكتب، من منطلق التخصص، المقالاتِ المعـرِّفة بـالأدب الإسـلامي. وأجري الحـوار حول طـريقه الأصيـل، وذلك لكي يلمس القارىء والباحث الناشىء، وكلُّ مهتم بـالأدب الإسلامي معـالمَ الأدب الإسلامي وطريقه، بما يبصِّره بحقيقته، ويوجهه إلى السبيل الذي يدرك معه: ماذا يأخذ؟ وماذا يدع؟..

الكتاب مقالات وحوار، هي مخاض تجربة التصحيح، وبيان الطريق لمن يـروم تذوق حقيقة الأدب الإسـلامي، أنشر منهـا مـا جـادت بـه «التجارب.. والمواقف»، مرجئاً الشطر الآخر منها إلى الجزء الثـاني، مؤملاً أن يجد القارىء والباحث في تضاعيف هذا الكتاب الوجيز المعالمَ

والطريق في الأدب الإسلامي، وفي الكتاب المفصّل «الإنسان في الأدب الإسلامي. . » المنهجَ والتطبيق.

وأخيراً، ما أرجوه بكتابي هذا، أن يأخذ كلُّ باحث موقعه في دنيا الأدب والفكر من خلال تخصصه، التخصص الدقيق، وأن نحذر في دنيا الإسلام هذا الاختلاط الناشيء عن بحث غير المختص في الأدب الإسلامي الذي يضيع الحقائق ويطمسها، ويفرط في الأمانة العلمية، ولا يشفع في ذلك نُبلُ الدوافع أو بُهرجها. فإن الحقيقة أثمن وأجلُّ شأناً.

نسأل الله، أن يبصّرنا بأنفسنا، ويوفقنا لخدمة الإسلام وأدبه بما نعلم ونُحسن، وأن يلهمنا الإخلاص في القول والعمل. .

﴿ وقُلِ اعملُوا فسيرَى اللّهُ عملَكم ورسولُه والمؤمنون. وسَتُرَدُّون إلى عالمِ الغيب والشهادة فينبِئُكم بما كنتم تعملون ﴾ التوبة: ١٠٥.

ومع أطيب تحياتي لقراء الأدب الإسلامي وتمنياتي للأدباء الإسلاميين بالنماء والازدهار والسلام عليكم ورحمه الله وبركاته.

أبها/غرة ذي القعدة ١٤٠٦

محمد عادل الهاشمي

دكتوراه في الأدب الإسلامي

الأَدَبُ الإِسْلَامِي.. لِمَاذَا ؟

إننا من أمة مسلمة، هي خير أمة أخرِجَتْ للناس، وسّدها الله ريادة البشرية وقيادتها، والقوامة الفكرية عليها، ولقد رَعينا هذه الأمانة حِقبة مضيئة من الدهر، ثم تقاعَسنا، ونهضَ لتبوُّء القيادة الفكرية في أوربة وأمريكا من كنّا لهم أساتذة بالأمس. وبحكم اتّباع الضعيف للقوي، أخذنا نَصدُر في كثير من أمورنا عن تفكير أوربة ومدنيتها، حتى كادت شخصيتُنا المسلمة تنحصر في المسجد والمواسم الدينية، أما طريقة التفكير والتعبير فأخذنا نستوردها من هناك ابتغاء اللحاق بالقافلة المتمدينة.

مضى علينا حينٌ من الدهر كادت شخصيتُنا الإسلامية تتوارى عن الوجود، لولا فضلٌ من الله، أن قيّضَ من يعبِّىء للأمةِ المسلمة طريق فكر جديدة نابعة من القرآن والسنة وتصور للإسلام واعٍ، يوضح نظرتنا المتميزة عن الوجود التي تبذ كافة النظرات الأوربية الحائرة المشتتة، ويجلو للعقول والأفهام معالم الإسلام وحقيقته الخالدة، وهذا ما أعاد للشخصية الإسلامية اعتزازها بدينها من جديد، على أسُس راسخة قويمة، مسلحة بالأدلة الراقية، التي تثبت وجود الفكر الإسلامي على أرقى وجه في العصر الحديث.

من الواضح لكل دارس للأدب أننا كنا في القرن الماضي ولا نزال في جُلِّ عقود هذا القرن، نعيش على قيم الأدب الأوربية ومذاهبها الأدبية!

شأننا في ذلك في سائر أمورنا الفكرية والحضارية التي تابعْنا فيها ديار الغرب دون تمحيص. ولما كان الأدب جزءاً من الفكر والحضارة فقد ابتعد أدبنا تبعاً لذلك، وحسب النظرة الأوربية، عن الدين الإسلامي والأخلاق الإسلامية، ونشأ من أبناء جلدتنا أدباءُ التحقوا بركب الغرب أو الشرق، وتبنّوا مبادئهما الفكرية والأدبية وقلبوا لدينِنا وأخلاقِنا ظهر المِجَن، مما كان له أسوأ الأثر في تربية أجيالنا الجديدة، التي نعلق عليها أكبر الآمال في نهضتنا المعاصرة، وفي مواجهة التحديات الفكرية والسياسية.

هنا جدّت الحاجة إلى أن يكون لنا أدبٌ متميز أصيل، لا يستمد قِيَـمَه الفنية، وخلفيته الفكرية من التيارات الوافدة المستوردة، وإنما يستمد وجوده الفكري، وانطلاقته الوجدانية من التصور الإسلامي للحقيقة الإلّهية وللكـون والحياة والإنسـان، ولسنا في هـذا نجانب الحقيقـة الأدبيـة أو المقاييس الفنية المعاصرة.. إنّ هناك أدباً وجودياً يعبر عن المذهب الفلسفي للوجودية، وإن هناك أدباً اشتراكياً يعبر عن النظرية الماركسية ـ وهما مذهبان فلسفيان ماديان يعبران تعبيراً ناقصاً خاطئاً عن الحياة ـ أما الإسلام وحاشا أن نقارنه بتلك المذاهب الضالة، فهو دين الله الحق لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خـلفه، نظرتُه إلى الوجود والحياة أكملُ وأشملُ نظرة فكرية وجدانية عرفتها المدنية والحضارة الإنسانية، لذلك فإن الأدب الإسلامي حين يصدر عن نظرة الإسلام وتصوره.. فإنه الأدب الذي يفوق الآداب جميعاً، بعمق نظرته، وشمول دلالته على حقائق الوجود، وهو الذي يعصم حياتنا الفكرية والوجدانية من التبعية والانسـلاخ من شخصيتنا الأصيلة. ويُنجينا من القلق والتمزق والشتات الذي تعيشه الأجيال الحائرة في ديار الغرب ومن سار على طريقهم في بلادنا.

قِصَّتي مَعَ الأَدَبِ الإِسْلَامي

بمناسبة مناقشة أول رسالة للدكتوراه في الأدب الإسلامي قدمها صاحب الكتاب تحت عنوان «الإنسان في الأدب الإسلامي» في كلية الآداب بجامعة الإسكندرية، وحازت التقدير بدرجة الشرف الأولى.

لامست هـذه الفكرة نفسي، مـذ وعيت الكلمـة الأدبيـة المحمّلة بالإيحاء، فلم أجِدْها في السبحات الضائعة في أكثر الصحف والمجلات، ولم أجدها في المؤلفات الأدبية التي اعتمدت مناهج بعيدة عن جـوهر الروح الإسلامي، وإنما وجدتُها في نتاج الأديب المسلم شاعراً وكاتباً. ذلك الأديب الذي أطلق كلمته منبثقة من روحه، ثم مضى يصارع التيارات الوافدة بكلِمِه الطيب، وينشر العطر المتميز، فتتنسمه النفـوس الذوّاقـة المؤمنة وتطمـح إلى المزيـد... وكان أن تـوافَدَ النتـاج، نتاج الأديب المسلم، فتكاثر وازدلف، ونما وتعمق، وكان لا بدّ له من خط سير ومسار، وكانت الخطوة الأولى الموفقة عند الرائد محمد قطب في كتابه «منهج الفن الإسلامي» الذي وضع حجر الأساس، ثم تقاطرت الأبعاد..

وتفاعلت الفكرة في نفسي وأخذتْ أبعادها، ومضيتُ في الطريق، وأملي أن تأخذ هذه الطاقات الأدبية المسلمة طريقها إلى أدب منهّج يصب في جـدول واحد، يترقرق بالنبع الإسلامي الصافي، ولم يكن الأمر سهلاً، إنه ليس ضم النتاج إلى النتاج، وليس تراكم الألوان والفنون، إنه بناء الطريق الجديد بعد وضع حجر الأساس، والبناء ينبغي أن يكـون متيناً

وموثوقاً، ومشهوداً له من أكبر الجهات العلمية والأدبية، ليأخذ الأدب الإسلامي طريقه المتين القوي الأمين، ولكي يدخل المدارس والجامعات والأوساط الأدبية، فيعرفه الناس في صفاء نظرته، وأصالة بحثه، بعيداً عن الاجتهادات الفردية التي قد تخطىء، وتقدمتُ برسالتي للدكتوراه في الأدب الإسلامي، بعد أن شُغِلت بالتفكير فيه أكثر من عشر سنين، وكان أن استقر الموضوع على بحث بعنوان «الإنسان في الأدب الإسلامي، تأصيل وتحليل» في كلية الآداب بجامعة الإسكندرية وصرفت في البحث ست سنين، تراءت لي من خلاله أبعاد وآفاق أوسع بكثير مما خطر لي، تجاوزتْ بي ما كنت آمله، وتخطَّتْ بي ما كنتُ أتوقعه، إنها عوالم الإسلام تترجَم إلى بيان، وآفاقه وقيمه الكبرى ترود الوجدان الإنساني، لترتفع به إلى أسمى ما بلغتْه البشرية من آفاق. . . وكان عليّ أن أمرّ خلال البحث بما يسمى بالأدب العالمي، فإذا بي، وأتحدث بكل ثقة، أجد أن الشعراء والأدباء الإسلاميين بمبادراتهم الذاتية قد فاقوا، في نتاجهم، آفاقاً ومضامينَ، كثيراً من الأدباء الأوربيين الذين أشاد بذكرهم جيل المتغربين من الأدباء عندنا. إن أدباءنا الإسلاميين، دون شك، يفتقرون إلى مزيد من المهارة التقنية والتكوين الفني، أما آفاقهم وعوالمهم فشتان بينها وبين الآفاق الأوربية.

وكان عليّ أن أمرّ بأكثر النتاج الأدبي المعاصر لكي أوضح من خلاله خطّ الأصالة الإسلامية من التغريب ومتابعة الخط الأوربي في الأدب، فوجدت أثناء ذلك من المفارقات العجيبة ما يذهل ويؤلم، كيف يحتلّ أدباء التغريب اهتمام أكبر صحف ومجلات عالمنا العربي، وجلَّ محافله الأدبية والنقدية، ويقولون ما يشاؤون في أكثر وسائل الإعلام، ونتاج أدبائنا الإسلاميين، نتاج أمتنا الأصيل الذي يفوق ذلك النتاج المتغرِّب يقبع في صحيفة أو ديوان، وقد لا يجد من يعرّف به.

وجدت بعد هذا أنه لا بد من هذا الخط الجديد الذي يقيم البناء، بناء الأدب الإسلامي على أسس راسخة، ولا بد من خط سير ينير الطريق لأدبائنا الإسلاميين، ومضيت خلال السنين الست الماضية، فرجعت إلى مئات المصادر والمراجع، فيها من التنوع والتكامل ما ينير الرؤية ويوضح خط الأدب الإسلامي، مقارناً بالآداب الجاهلية... وتحت رقابة وتوجيه الخبراء في البحث، كتبت بحثي «الإنسان في الأدب الإسلامي» الذي ناقشته جامعة الإسكندرية، ونال شهادة الدكتوراه بدرجة الشرف الأولى فأضحى البحثَ المعتمدَ علمياً، وعلى مستوى المحافل العلمية والأدبية، مؤصلاً للأدب الإسلامي ورسمِ خطِّ طريقِه...

حين أنجز بحثي عن الإنسان في الأدب الإسلامي، أكون قد عرضت لمحور من محاوره الكثيرة من مثل الكون، والمخلوقات، والإيمان وسواها من محاور، ترتقب البحث المنهجي الهادف، وإن كان محور الإنسان الذي كان موضوع البحث يضم في ثناياه أكثرها، ويتعمق حقيقة الإنسان في الأدب الإسلامي.

ويمكنني أن أعرض من خلال البحث لما حقق من نتائج وما رسم من أهداف...

أما النتائج التي حققها ولم يُسبَق إليها:

١ ـ إثبات وجود الأدب الإسلامي في عالمنا المعاصر من خلال بحث علمي يرسم الخطوط، موثّقة بالشواهد الأدبية في مجال الفنون الأدبية المختلفة.

٢ ـ تقديم منحى جديد في البحث الأدبي يتخذ من معيار الأصالة الإسلامية مقوماً أساسياً للأدب بجوار المقوم الفني، وفي ذلك طرح لمنهج أدبي جديد له أثره الكبير في تقويم مسار الأدب المعاصر.

٣ ـ توسيع المضامين الأدبية وتحريـرها من التقليديـة والتبعية، لأن الأدب الإسلامي حين يستلهم مضامينه من عوالم الإسلام وآفاقه الشاملة يمتلك أوسع وأشمل تصور عرفته الآداب الأخرى، ولأن الأدب على طريق الإسلام الخصب سينتج ويبدع كل يوم ليستوعب ما يطيق من معطيات الإسلام الثرة التي لم ينتج فيها الأدباء إلاّ الجزء اليسير وجلها آفاق بِكر ترتقب الأدباء الموهوبين.

من تلك المضامين نظرة الأدب الإسـلامي الفريـدة إلى الإنسان، وموازنته فيه بين المادة والروح بما يضبط السلوك البشريّ بهذه النـظرة المساوقة لناموس الكون، ونظرته إلى الكون بما في تكوينـه من اتساق وتوازن وفاعلية وجمال، تنعكس على الإنسان مشاركة في هذه الآفاق في موقف متفاعل وتملٍّ رهيف رفيع للجمال، ومن ثم تذكير الأدب الإسلامي بأمانة الاستخـلاف ـ كي لا يطول بُعدُ الناس عن تمثلها ـ عبر تجارب أدبائه بوصفها حجَر الزاوية في حياة الإنسان، إن تمثّلها كان لحياته معنى، وإن لم يدركها سدَرَ في الشرود والعدم والضياع. إنها هدف الحياة الذي يجلو المعنى الإنساني المتكامل وينشىء الحياة الإنسانية الرفيعة المتهدية بهدى الله، والسائرة على ناموسه. الإنسـان فيها مكـرّم عند الله، مـوفور الكرامة والقدر في الحياة، يحس بوجوده وتبعتـه، ويؤكد هـذا الوجـود الإنساني بمزاولته مهمتَه، وتأكيده ذاتَه في عزة وحرية وكفاية، وحمـايتِه حقوقَه الإنسانية من كل اعتداء، واعتمادِ الأصل الواحد للبشـرية الـذي يجمعها على الحب والتعاون، ودفعِ الطغيان، والعدوان، وعُمرانِ الكون في ظل شرع الله وقيمه.

٤ ـ تقديم الأدب الإسلامي إلى الأوساط العالمية بالصورة الإنسانية الإيجابية التي عرضنا لها، على أنه بديل راق للنزعات الأدبية الموقوتة التي هي في طريقها إلى الزوال من مثل الرومانسية الجديدة والسيريالية ليحقق

إضافة إلى التراث الأدبي المعاصر، فلا يقدِّم نسخة مكرورة من آداب الأمم المعاصرة، وإنما يقدم لوناً متميّزاً متفرداً، لـه نكهته الخـاصة، يستقبله التراث العالمي على أنه زاد جديد يفيد منه، يوسع من رؤيته ويجدِّد من قيمه.

٥ ـ تقديم الأدب الإسلامي للأجيال الإسلامية، بوصفه حركة تغيير للواقع المعاش، يملأ الفراغ الأدبي الذي أحدثته حركة التغريب في أدبنا المعاصر، بروح حية، ولود، تجدد حياة الأمة الإسـلامية، وتبعث فيهـا طاقاتها المعطلة، وتؤلق إنسانية الإنسان، وستجد الأجيال الإسلامية في الأدب الإسلامي مقوماً للأفكار والأحداث والأشخاص من خلال قِيَمِهِ الذاتية التي يرعاها الإسلام، سيجد فيها ضمّاً لجهوده وطاقاته، وربطاً بالناموس الإلّهي الذي يحكم الوجود والحياة وتحديداً لمنطلق الحياة على هـدى رسالة رب السماء الذي استخلف الإنسان في الأرض.

٦ ـ تحقيق الأدب الإسـلامي التطلع الإنسـاني الذي عجـزت عنه الرومانسية في أفق (العالم الثاني) فظل لدى الرومانسية أملاً واهماً وخيالاً مهوّماً، وهروباً وذلك حين حقق الأدب الإسلامي القفزة إلى الواقع الأكبر على مستوى التصور والإبداع الفني، ومست أنامل الأدباء الإسلاميين تلك اللحظات الأثيرية من عالم الإنسان في تفوقه على نفسه، وفي ارتقائه إلى العالم الثاني.

٧ ـ وفي قضية الموت، تجاوز الأدب الإسلامي النظرات الفَزِعة من الموت لدى المذاهب الأوربية المعاصرة التي ترى الموت نفـياً لـلحياة، وقد أورثت نظرتها المحدودة القلق والاغتراب، كما تجاوز النظرَ الأسطوري الذي يزعم التغلب على الموت بالانبعاث الواهم، حين جعل الأدبُ الإسلامي من الموت قنطرة يعبر عليها الإنسان المسلم من الدنيا إلى الآخرة المتحدتي

الهدف، في حياة متصلة لا تنقطع، الجزء المخوف منها في تلك النظرات، هو الجزءُ المحبَّبُ إلى الإنسان المسلم، به ينتقل من السعي إلى الثمرة، ومن المعاناة إلى النعيم، وهذا سر مسابقة الإنسان المسلم لتحقيق العالم الثاني في الشهادة حيث النعيم الأكبر.

٨ ـ النظرة الإيجابية إلى الحياة: تجاوز الأدب الإسلامي النظرات السود التي ترى في الحياة لعنة الوجود، أو تراها خالية من الغاية تُملأ بانتهاب اللذات... فالحياة في الأدب الإسلامي مشرقة، الكون فيها جميل، حيّ، متناسق، متعاطف مع الإنسان، والمخلوقات كلها أصدقاء للإنسان، والإنسان مكرم، وذو إرادة وطاقة والغاية واضحة، والحياة ممتدة، وللإنسان دوره الخطير ومسؤوليته الكبرى، فلا يعيش ذرة هائمة، وإنما هو مخلوق لغاية وهدف وكذلك كل ما حوله، هذا كله يمنح الإنسان قوة دافعة واستبشاراً بالحياة وإقبالاً على العمل والنتاج.

٩ ـ النظرة الجمالية الواسعة التي تجاوِز في الأدب الإسلامي النظرات الجمالية المادية المحدودة بشمول النظرة الإسلامية التي تضم أطراف الوجود مادة ومعنى، شكلاً جميلاً وقيماً جميلة، من خلال كلية تعد الجمال أصلاً في بنية الكون وفي خلق الإنسان والمخلوقات صفات ومعاني، ومشاعر، بما يرفع من شأن النظرة الجمالية لدى الإنسان ويغنيها.

١٠ ـ النظرة الوجدانية التي تميز في الأدب الإسلامي إنسانيةَ الإنسان، وتفتح وجدانه على عوالم عليا فتبعث فيه من الطاقات ما يجعله يستعذب المُرّ، ويستلين الشوك، ويستنير الظلام.

١١ ـ يقدم الأدب الإسلامي ـ في عصر ضعُف فيه سلطان العقيدة ـ انطلاقته على أساس من العقيدة التي تربط الإنسان بربه فيستشعر من الطاقات ما يجاوز قدرته فيبدع، ويتوثب، ويفتح الأبواب المغلقة، ويسمو بنفسه على

المواضعات إلى أفق أرقى فيرتفع على نفسه، يفقد فيصبر، يفتقر فيتعفف، يؤذَى فيصفح، يجِد فيُنفق، يساوره حبُّ الحياةِ فيجودُ بها راضياً في سبيل ربه، ويتذوق في ظل هذه الآفاق الحياة بطعم خاص ورؤية متميزة.

١٢ ـ وأخيراً فإن مجموع هذا البحث يحقق إرساء مفهوم إنسانية الإنسان، على نحو لا نرى له نظيراً في النظرات الأخرى، في خصائصه وعوالمه، ورحابة آفاقه الفنية.

أما الأهداف التي يرمي إليها البحث بعد النتائج الي حققها فهي:

١ ـ إحداث صدمة شعورية تهزّ كيان الإنسان العربي المعاصر ليعيد ذراتِ تكوينه من جديد، بعد أن استغرق طويلاً في إلف الجاهليات المغربة المعاصرة، ليجد نفسه من خلال خصائص تميزُّ وجودَه ودوره في الحياة.

٢ ـ تقديم الأدب الإسلامي لألف مليون من المسلمين في بقاع العالم مقوِّمَ وحدة، وعاملَ التقاء، سيجدون أنفسهم في الأدب الإسلامي ويجدون تطلعاتِهم ورسالتَهم، يتزودون منه ويزودونه، ومن هذا التفاعل تتجدد الرابطة الإسلامية في القلوب، ويخصب الأدب الإسلامي من خلال معطيات أدباء الإسلام، ويقُوم من خلال الإيحاءات واللمسات الفنية بحركة تعريب جديدة، يكون الأدب الإسلامي محورها الجديد.

٣ ـ إعلاء قيمة الكلمة والارتقاء بالقيم الفنية في تعبير الإنسان من خلال أرقى تصور للوجود، لذا كان من مرامي إرساء قواعد الأدب الإسلامي الارتفاع بالكلمة عن مهاوِي السقوطِ والضياع والنزعات الطائشة، وهذا ما يسهم في إعلاء قيمة الإنسان عن طريق تعبيره بما يتناسب مع تكريم الله له.

٤ ـ طرح مفهوم الأدب الإسلامي على مستوى الجامعات والأوساط

الثقافية في العالم العربي والإسلامي للتعرف إلى خصائصه وآفاقه والإضافة إليه عن طريق النتاج الأدبي والنقدي.

٥ ـ إفراد مادة خاصة في الجامعات العربية والإسلامية لتدريس الأدب الإسلامي بما يسهم في صنع الأصالة الأدبية لدى الأجيال الناشئة، ليكون الغد المرتقب أقرب إلى طابع أمتهم وآفاقها الأصيلة. وقد بدأت بعض الجامعات بذلك.

هذا ما وفق الله له، ولا أزعم في جهدي الكمال، ولا سيما في بحث بكر متسع كالأدب الإسلامي، والله من وراء القصد.

قضايا الأدب الإسلامي
في حوار مفتوح

يرعى الأدب الإسلامي الصحوة الإسلامية المعاصرة في ميادين الآداب من خلال نتاجه وموضوعاته وأبحاثه، وقد نشرت (المجتمع) طائفة من هذه الأبحاث والموضوعات.

والحوار الآتي تُجريه المجلة[1] مع الدكتور محمد عادل الهاشمي أستاذ الأدب الإسلامي ورئيس قسم الأدب في كلية اللغة العربية والعلوم الاجتماعية بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالجنوب، وهو صاحب اقتراح إحداث مادة الأدب الإسلامي في الجامعات، وتأصيل الأدب الإسلامي بمصطلحه النقدي في الندوات والأوساط الأدبية بوصفه البديل الأصيل من النزعات الأدبية الأجنبية الوافدة. وهو الحائز الوحيد على الدكتوراه في الأدب الإسلامي.

ويجري الحوار حول جملة من قضايا الأدب الإسلامي هي محل التساؤل، وطلب الاستكمال من جمهور قراء الأدب الإسلامي والمتابعين لموضوعاته ونتاجه..

---

(١) مجلة المجتمع (الكويتية) العدد: (٧٥١) ١١ من جمادى الأولى ١٤٠٦ والعدد: (٧٥٢) ١٨ من جمادى الأولى ١٤٠٦.

الحلقة الأولى
الأدب الإسلامي.. منجزاته وآفاقه المستقبلية

س: متى تجلى عندك الميل إلى الأدب الإسلامي؟ ومتى بدأت دراساتك فيه؟.

ج: يعود ميلي للأدب الإسلامي إلى عشرين عاماً خلت، فقد كنت أصبو منذ ذلك الحين إلى الكلمة المؤمنة الملهمة، وأترشفها حين أجدها إلى أن استحال الميل الأدبي إلى عزيمة ترود طريق الأدب الإسلامي، اطلاعاً على النتاج واستكشافاً للآفاق حتى استقامت لي أبحاثي في الأدب الإسلامي، وعلى رأسها (الإنسان في الأدب الإسلامي ـ تأصيل وتحليل) الذي أنفقت في إعداده ست سنوات، تراءت لي من خلاله أبعاد وآفاق تجاوزتْ ما كنت أؤمله من عوالم الأدب الإسلامي وذخائره، وتوالد من البحث المذكور أبحاث عدة هي قيد الإعداد.

س: ماذا تجني الصحوة الإسلامية المعاصرة من ابتعاث الأدب الإسلامي؟

ج: أول ما تجنيه الصحوة الإسلامية من ابتعاث الأدب الإسلامي في عصرنا الحاضر تأصيل الكلمة المتأدبة، وملؤها بالخير، وإتراعها بالإيحاء، وإيصالها إلى القلوب غضة، ملهمة، تعبق بعبير الإيمان وترود الإنسان إلى نقي فطرته، وناموسه الأزلي، وخط سيره الرباني، وثانيه: تجنيب الأدب

المعاصر مزالق التغريب الأوروبي والنزعات الأدبية الشاذة التي تهوي بالبشرية إلى درك الضياع والتمزق والشتات، ومنح القارىء المتأدب المعاصر ملكة يميز بها الأصيل من الدخيل، واستقلال الشخصية من التبعية.

وثالثه: إرساء عامل وحدة بين الأقطار العربية والإسلامية حول أدب يكتب بلغة القرآن، وينبع من شخصية الأمة المسلمة.

ورابعه: إعلاء قيمة الأمة الحضارية من خلال ابتعاث أدب يعبر عن تطلعاتها وقيمها وأعرافها ويمثل شخصيتها الحضارية، وينقل إلى العالم هذا اللون المتميز الأصيل.

س: ما النتائج التي توصلت إليها من خلال بحثك الأدبي (الإنسان في الأدب الإسلامي تأصيل وتحليل) بوصفه البحث الأول الذي حاز الدكتوراه في الأدب الإسلامي بمفهومه النقدي؟ ومتى يخرج البحث إلى النور؟.

ج: لقد حقق البحث المذكور نتائج لم يُسبق إليها نورد منها:

أولاً: إثبات وجود الأدب الإسلامي في عالمنا المعاصر من خلال بحث منهجي يرسم الخطوط موثقة بالشواهد الأدبية في مجالات الفنون الأدبية المختلفة.

ثانياً: طرح منهج أدبي جديد يتخذ من معيار الأصالة الإسلامية مقوماً أساسياً للأدب بجوار المقوم الفني.

ثالثاً: توسيع المضامين الأدبية وتحريرها من التقليدية والتبعية، لأن الأدب على طريق الإسلام الخصيب سيبدع كل يوم معطيات الإسلام الثرة التي لم ينتج فيها الأدباء إلّا الجزء اليسير، وجلها آفاق بكر ترتقب الأدباء الموهوبين.

رابعاً: تقديم الأدب الإسلامي إلى الأجيال الإسلامية، بوصفه حركة تغيير للواقع المعاش، يملأ الفراغ الأدبي الذي أحدثته حركة التغريب في أدبنا المعاصر، ويجدد حياة الأمة المسلمة. ويبعث طاقاتها الخامدة ويؤلق إنسانية الإنسان، وذلك في نظرة إيجابية يتجاوز بها الأدب الإسلامي النظرات السوداء المعاصرة. بما يمنح الإنسان قوة دافعة، مستبشرة بالحياة، مقبلة على العمل والإنتاج، وفي نظرة جمالية واسعة يتجاوز بها الأدب الإسلامي النظرات الجمالية المحدودة، بنظراته الشاملة التي تضم أطراف الوجود شكلاً جميلاً، وقيماً جميلة، من خلال كلية تعد الجمال أصلاً في بنية الكون والمخلوقات، وسيصدر البحث مطبوعاً قريباً إن شاء الله.

س: كم شاعراً وكاتباً إسلامياً ضم البحث المذكور؟.

ج: لقد ضم بحثي زهاء أربعين شاعراً جلهم من المعاصرين، تبلغ منتقياتي من شعرهم ألف بيت ونيف، تتمثل فيها خصائص الأدب الإسلامي فنياً، كما ضم خمساً وعشرين رواية وقصة منتقاة، وعشر مسرحيات تتوفر فيها خصائص الأدب الإسلامي، عدا المقالات التي تعد بالمئات، وأما أبحاثي التي هي قيد الإعداد فتضم أضعاف ذلك من نتاج الأدباء الإسلاميين في سائر الفنون الأدبية، وتنزل نصوصهم في مواقعها من الأبحاث التي أعِدها.

س: هل هناك ما يشر بخصب نتاج الأدباء الإسلاميين المعاصرين؟.

ج: إن نتاج الأدباء الإسلاميين المعاصرين في اطراد ونمو والحمد لله، فقد بلغ ما حصلتُ عليه من دواوين الشعراء الذين يسيرون على خط الأدب الإسلامي زهاء عشرين ديواناً، تتمثل فيها خصائص الأدب الإسلامي الفنية، عدا الدواوين التي نلمح فيها اتجاهاً إسلامياً كما اطلعت على أكثر من خمسة وعشرين رواية وقصة تتمثل فيها خصائص الأدب الإسلامي الفنية خلا الروايات والقصص ذات الاتجاه الإسلامي وذلك عدا

المقالات الأدبية وهي غزيرة جداً.

س: هل لك أن تجلو لنا الفرق بين مصطلحي (الأدب الإسلامي) و(الاتجاه الإسلامي في الأدب) وما قيمة التقيد بهذه المصطلحات؟.

ج: مصطلح (الأدب الإسلامي) يعني: صدور النتاج الأدبي عن حقائق التصور الإسلامي، وقيمه، أما (الاتجاه الإسلامي في الأدب) فهو دون (الأدب الإسلامي) منزلة، إنه يعني اتجاه الأدب إلى الإسلام في موضوعه أو شخصياته وإشاراته دون بلوغه منزلة التعبير الفني عن حقائق التصور الإسلامي وقيمه، وهذا التحديد هو الذي يتيح لنا أن نميز بين النص الذي يتمثل الإسلام في حقائقه وآفاق مثله وقيمه، وبين النص الذي يكتفي بالمسمى الإسلامي والموضوع الإسلامي دون أن يتعمق أغوار الحقائق والمثل، وفي هذا التحديد إعلاء لمستوى الأدب الإسلامي يحرص عليه كل مسلم.

س: هل سيحتل الأدب الإسلامي مكانه بين الآداب العالمية؟.. ما نظرتك المستقبلية لذلك؟.

ج: إن الأدب الإسلامي يرشَّح له ـ بعون الله ـ أن يوسع آفاق انتشاره، فيجوب أطراف العالم، ويغشى أوساطه الفنية، يرود المجتمعات البشرية إلى الآفاق الإسلامية الرفيعة من خلال التصور الإسلامي للوجود والحياة، إننا نستطيع أن نقدمه إلى الأوساط العالمية بالصورة الإنسانية الإيجابية، على أنه بديل راقٍ للنزعات الأدبية الموقوتة التي هي في طريقها إلى الزوال، من مثل الرومانسية الجديدة والسيريالية. له نكهته المتميزة، ورؤيته الشاملة المتجددة، ورحيقه الإنساني الذي يمسح على آلام البشرية، ويفيئها إلى حقيقتها ودورها الإنساني، سيستقبله التراث العالمي على أنه زاد جديد متفرد، يفيد منه، يوسع من رؤيته، ويجدد من قيمه.

الحلقة الثانية
مواقف الأدب الإسلامي وتميز مصطلحاته ونتاجه

س: ما رأي الأدب الإسلامي في النزعات الأدبية الأوروبية المعاصرة؟

ج: إن النزعات الأدبية الأوروبية المعاصرة نبتت في بيئة ثقافية مغايرة لبيئتنا الثقافية وفي أحضان قوم يمارسون مُثُلاً مغايرة لمثُلنا، ويختطون سبيلاً غير سبيلنا، وقد ترعرعت هذه النزعات والمذاهب الغربية وسط ظروف وأحوال وانتفاضات تخص أهلها وتتصل بحياتهم وتطلعاتهم ووجهات نظرهم، لذا كانت هذه النزعات التي تحمل تصورات مغايرة لروح أمتنا ومثُلها وتطلعاتها لا تصلح لنا ولا تعبر عن مفاهيمنا ولا تعالج قضايانا.

إن الأدب الإسلامي مثلاً، ينظر من خلال تصوره إلى فلسطين على أنها مهد النبوات، وإلى المسجد الأقصى على أنه أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين، ويرى الحل الإسلامي لها بالجهاد والتحرير بينما تنظر الواقعية الاشتراكية إلى فلسطين بوصفها أرضاً ككل أرض يمكن أن يتعايش على أرضها اليهود والعرب، والحل الاشتراكي لها سيادة الاشتراكية الملحدة التي تجمع العرب واليهود على أرضها في سلام! وإن الأدب الإسلامي لينظر إلى الإنسان، بوصفه مستخلفاً عن الله في الأرض يزاول مهمته، ويؤدي دوره في الدنيا، هداية وعمراناً ليحظى برضوان الله وثوابه في الآخرة، بينما ترى الوجودية في الحياة لعنة الوجود، أو تراها خالية من الغاية

تُملأ بانتهاب اللذات، تحدياً للحياة وإنكاراً للألوهية وكل ما لا تصل إليه الحواس إلى درجة التردي في درك الحيوانية.

والأدب الإسلامي أدب عقيدة في الله، يعنو فيه الوجود كله له من كون وحياة وإنسان، بينما تُسند الرومانسية الألوهية، من خلال نظرتها الحلولية - إلى كل إنسان في الأرض!.

س: إن من أدبائنا المعاصرين من يتبنى خطأ أو أكثر من تلك النزعات الأدبية الأوروبية ويحمل الوسط الأدبي عليها، فما رأي الأدب الإسلامي في ذلك؟.

ج: من اقتفى من أدبائنا طريق المذاهب الأدبية الأوروبية أو ترسم نهج بعض رجالها، إنما صنع ذلك بعامل البهر بالحضارة الأوروبية الغازية، يجري خلفها في خيرها وشرها، في حلوها ومرها، ويرفع، في تقليده طريق الأدب الأوروبي - لواءَ الحداثة، والتناقض ظاهر، والأعجب من ذلك أنه يجترّ نزعة أدبية أجنبية ماتت في بلدها وهجرها أهلها. إننا ندعو أدباءنا المعاصرين إلى طريق الأصالة المنفتحة التي تعبر عن شخصية الأديب وشخصية الأمة، وتنتقي من النزعات الأدبية في العالم ما يلائمنا ويلبي حاجة أمتنا - وأخص من ذلك التقنيات الفنية - وما ينسجم مع تصورنا للوجود ونظرتنا للحياة، على أن نصهر الوافد من هذه النزعات بطابعنا وشخصيتنا الأصيلة.

س: ما مدى حاجة الوسط الأدبي في بلادنا للأدب الإسلامي؟ وهل يلبي الأدب الإسلامي تطلعات أجيالنا المعاصرة؟.

ج: إن ابتعاد بعض أدبائنا المعاصرين عن طريق أصالة أدبنا، واستلهامه نتاجَه الأدبي وقيمه الفنية من الأدب الأوربي ومذاهبه الأدبية خلّف فراغاً في الوسط الأدبي، عبّر عنه أحد الباحثين بافتقاد أدبنا المعاصر نظرية أصيلة في

الأدب والنقد[1]. لذا أخذت أجيالنا المعاصرة ـ ولا سيما في الصحوة الإسلامية الراهنة ـ تتشوف إلى أدب يعبر عن شخصيتها وقيمها الأصيلة.

وانطلاقاً من هذا الإلحاح في أعماق النفوس التي تنشد الأصالة في الفكر والتعبير، طفق الأدب الإسلامي يأخذ طريقه إلى الأوساط الأدبية، بوصفه التعبير الوجداني الأصيل عن الإنسان المسلم ودوره في الحياة، واحتل ساحة من الاهتمام الوجداني يفوق ما كان في العقود السابقة من هذا القرن، حيث أخذت تُعقد له الندوات على مستوى العالم العربي والإسلامي، ويدور حوله الحوار الصحفي والإذاعي، وأخذ الشباب يترشفون ذلك كله بظمأ وتطلع، إذ يجدون أنفسهم ومشاعرهم وتطلعاتهم في الأدب الإسلامي.. من هذا يتضح أن الأدب الإسلامي جاء تلبية لتشوف ملح من أجيالنا المعاصرة إلى أدب يتحدث باسمها وينطق بوجودها، ويؤلق قيمها، ويعالج قضاياها بروح استقلالية أصيلة.

س: يتوالى الحديث عن الأدب الإسلامي هذه الأيام، والمنطلق مختلف، فما السبيل ـ والموضوع حيوي جليل ـ إلى ضبط تقييم الأدب الإسلامي في رأي المختصين؟..

ج: إنه ليس كل من يتحدث عن الأدب الإسلامي يدرك أبعاده وآفاقه، فالحديث في موضوع ما، لا بد أن يكون صادراً عن دراية وتمرس وخبرة، يسمى اليوم بالتخصص، والتخصص الدقيق، وهو مزية حضارية سبقنا رجال أوروبا إلى الأخذ بها في مثلنا العربي: (أعطِ القوس باريها) ولكننا في بعض الأحيان نحسب أن كل إنسان يستطيع كل شيء، وهذا ما

(١) انظر ثقافتنا بين الأصالة والمعاصرة ـ جلال العشري ـ مصر ص: ٧.

جر علينا ذيول الفشل في محاولات كثيرة، لم يكتسب صاحبها التأهيل اللازم، فيتحدث في الإعلام من جهل ما وصل إليه العلم والمهارات الفنية فيه، ويتحدث في الأدب من قرأ بعض كتب فيه، وكذلك الأمر في الأدب الإسلامي، إن الإسلامية تستهوي كل من حاز اطلاعاً يسيراً في الموضوع، فيحسب أن بإمكانه أن يتحدث عن الأدب الإسلامي ما دام مسلماً آخذاً بأسباب الثقافة، ونسي أو لم يعلم أن الأدب الإسلامي أدب أولاً، والأدب في خصائصه وطبيعته فن من القول يغاير ألوان الثقافة الأخرى.

والأدب الإسلامي - في آفاقه التي سبق الحديث عنها - يقتضي المتحدث فيه أن يكون مؤهلاً لذلك بالاختصاص الذي يمنحه إدراكاً واسعاً لآفاق الأدب الإسلامي وقيمه، وتمرساً بالنصوص وتحليلها، وسبر أغوار انتمائها الفكري، والتمييز فيها بين الأدب الأصيل والأدب الدخيل، وما يتبع ذلك من إنزال النصوص في مواقعها؛ وفي ذلك بسط قول، كما يمنحه الاختصاص قدراً وافياً من مفاهيم الفكر الإسلامي، يستطيع معها التكيف الشعوري بوجهة النظر الإسلامية في قضايا الحياة والوجود كافة، فضلاً عن الإلمام بالتراث القديم والحديث والآداب العالمية، وهكذا يتضح أن الحديث عن الأدب الإسلامي ليس بالبساطة التي يحسبها البعض، ومن أراد أن يتصدى للحديث فليبذل الجهد في التأهيل والاختصاص، فالأدب الإسلامي لا يبذل آفاقه وخصائصه إلاّ لمن بذل له نفسه جهداً وتمرساً، وليس طريقاً للشهرة، وإنما هو طريق للجهد الصامت، وإني لأعجب ممن لا يجرؤون على الحديث في تقييم الآداب الأوروبية وتياراتها، أو في الفنون الأدبية الحديثة - مع أنها عبِّدت بالبحث - ويدعونها راضين لأصحاب الاختصاص، ويتجرؤون على تقييم الأدب الإسلامي وإطلاق الأحكام عنه دون تخصص، مع أن طريق الأدب الإسلامي لم يعبَّد بالبحث والتقييم بعد، لذلك فهو عصي على غير المؤهل، ووجهات النظر غير المختصة لا تجديه شيئاً.

س: ما المصطلحات الأدبية التي تجد استخدامها غير ملائم لطبيعة الأدب الإسلامي وأصالته؟.

ج: لعل الحديث عن المصطلحات الأدبية يقتضينا استعراضاً لشروط الأدب الإسلامي وخصائصه ومصطلحاته، وفي ذلك كلام طويل.. لذا أجتزىء القول بتناول بعض المصطلحات التي يستخدمها البعض وهي ذات أصول تغريبية لا تلائم الأدب الإسلامي، والأدب الإسلامي في غنى عنها بأصالته وتصوره المتفرد وخصائصه. من ذلك:

ـ القول: بأن الأدب الإسلامي مذهب أدبي: وأرى أن هذه التسمية أو هذا المصطلح غير ملائم لطبيعة الأدب الإسلامي الذي يتسم بالشمول والسعة، تعبر به الأمة المسلمة في كل ديار الأرض عن تصورها للوجود ونظرتها إلى الحياة، فهو الأدب الأصيل في الأمة جميعاً، وليس مذهباً للبعض، والاتجاهات الأدبية المتغرّبة في ديار الإسلام دخيلة غريبة.

ـ بعض المصطلحات التغريبية مثل: جدلية، وهي أصل في المذهب الاشتراكي كما هو معروف، (ومثالية) وتعبر عن نظرية المثل لأفلاطون بما فيها من وجهة نظر لا تلائم التصور الإسلامي..

ـ مصطلح (الالتزام): دار على ألسنة البعض ممن يتحدث عن الأدب الإسلامي مصطلح (الالتزام) وهو مصطلح مستعار مجلوب، وجده بعض من عرض لإسلامية الأدب في العقدين الماضيين مدخلاً مناسباً للجمع بين الدين والأدب، لأن الباحثين الآخرين كانوا يرون أن لا صلة للدين بالأدب، وكان من الممكن أن يكون مصطلحاً مرحلياً يوطىء الأسماع الغريبة لفهم الإسلامية في الأدب في بيئة لم تسمع بها بعد، وكان يمكن أن تدرك عن

طريق (الالتزام) الوجهة الجديدة المنادَى بها مرتبطة بفكرة الالتزام التي تعرفها جيداً في المذاهب الأدبية الأوروبية.

ولكن مصطلح (الالتزام) قد استنفد أغراضه بنهاية هذه المرحلة حين بلغ الأدب الإسلامي مرحلة التأصيل واستطاع أن يجاوز هذا المصطلح المستعار واستغنى بإشعاعات (الإسلامي) عن أية صفة أخرى.

ولذا لم يعد هناك مسوغ لاستخدام هذا المصطلح المجلوب الذي يجعل الأدب الإسلامي حلقة في سلسلة (الالتزام) للآداب الجاهلية المعاصرة، ومن أبرزها التزام (سارتر) في مسرحه الوجودي، وتعد مسرحيته (الذباب) نموذجاً لمسرحه الملتزم، وقد تابعه من أدبائنا المتغربين حنا مينة في روايته (المصابيح الزرق) ويوسف إدريس في مسرحيته (اللحظة الحرجة) وفي روايته (الحرام)، تحت شعار الأدب الملتزم، كما يبدو اتجاه الالتزام في (الواقعية الاشتراكية) لدى الأديب السوفياتي (مكسيم جوركي) في مسرحيته (الحضيض) وقد تابعه من أدبائنا، المتغربين تحت شعار (الأدب الملتزم) سعد الدين وهبة في مسرحيته (كوبري الناموس) ومن أدب (الالتزام) ما نراه عند الكاتب السوفياتي أنطون تشيكوف، وتمثل اتجاهه الملتزم مسرحيته (بستان الكرز) وقد تابعه من كتاب القصة والمسرح المتغربين عندنا يوسف إدريس في مسرحيته (ملك القطن) ونعمان عاشور في مسرحيته (الناس اللي فوق) ولطفي الخولي في مسرحيته (القضية) وكلها تحت شعار (الأدب الملتزم) وهذا ما يجعل تاريخ مصطلح (الالتزام) تغريبياً قاتماً.

ولعله اتضح بعد هذا لكل متأدب أنه لا يليق بنا أن نلحق الأدب الإسلامي بدائرة (الالتزام) الجاهلية من وجودية واشتراكية، وكأننا لا نستطيع

أن نفهم أدبنا الأصيل إلاّ في ضوء المصطلحات الجاهلية وهذا فقر في فهم الأدب الإسلامي بآفاقه الشاملة الواسعة.

إن الأدب الإسلامي غني عن متابعة مصطلحات الموجات الأدبية الوافدة البعيدة عن شخصية الأمة، وغني عن التعلق بأوشابها وصدق الله العظيم:

﴿ والذين يمسِّكون بالكتاب وأقاموا الصلاة، إنا لا نضيع أجر المصلحين ﴾ الأعراف ٤ : ١٧٠.

ونعرض أخيراً ما يدلل على أن مصطلح الأدب الإسلامي واف بنفسه، لا يفتقر إلى صفة (ملتزم) فـ(الإسلامي) نسبة إلى (الإسلام) شرعِه وحقائقه، فهل هناك إسلام ملتزم وإسلام غير ملتزم عند من يمارس هذا الاصطلاح؟ إنه إسلام، ونحن في غنى عن هذه الأقسام! في غنى عن استعارة المصطلحات التغريبية، والأمر نفسه في كل ما يوصف بالإسلام من مثل:

(فكر إسلامي) و(مجتمع إسلامي) و(اقتصاد إسلامي)، فلا نقول: مجتمع إسلامي ملتزم، إذ تكفي صفة (الإسلام) عن أية صفة أخرى لأنها أشمل وأوسع، وليس هناك صفة تفضلها أو تشرحها، وتبقى الصفة الرديفة لغواً.

س: ما دام الأدب الإسلامي غنياً عن إلحاق صفة (الالتزام) به ـ كما ذكرت ـ ماذا نسمي الأديب المعبر عن خصائص الأدب الإسلامي وقِيَمه وماذا نسمي الأديب المتأثر بالإسلام؟.

ج: نسمي الأول: أديباً إسلامياً، ونسمي الثاني: أديباً ذا اتجاه إسلامي، وقد ألمحت إلى هذين المصطلحين قبلاً.

الحلقة الثالثة
مكانة الأدب الإسلامي ودور الأديب المسلم

س: هل يحتاج الأدب الإسلامي إلى تنظير؟.

ج: التنظير في الفكر والأدب نظير التخطيط في السياسة والاقتصاد، وعلى العكس منهما الارتجال، ولعل أحداً لا يقول بصرف النظر عن التنظير أو التخطيط في أي منشط من مناشط الحياة، بل إن حوارنا هذا إنما هو تنظير وتلمس لمعالم الأدب الإسلامي وقضاياه، وبدون ذلك ستخفَى أمور كثيرة، ويصبح الأمر فوضى. فضلاً عن أن الأدب الإسلامي يمتلك من الآفاق والعوالم ما يحفزنا على تأليقها وبسطها للمتأدبين، ليدركوا سعة عوالمه وشمول نظرته، الأمر الذي يطور نتاج الأديب المسلم، ويعلو بمستواه وينوع في مضمونه، ويؤلق في فنه وتناوله.

وإذا كنا نشترط للأدب الإسلامي الآفاق العليا في التصور، والرفيع من النتاج الأدبي، ونود أن نقدم الأدب الإسلامي، بروحه الإنسانية الشاملة، بديلاً راقياً من النزعات الأدبية العالمية، ويكون له دوره الإيجابي في توجيه البشرية، وإثابتها إلى الإنسانية الحقة والفطرة النقية التي برأ الله البشر عليها، بجوار تصحيح المفاهيم والتطلعات البشرية، إذا كنا نرجو للأدب الإسلامي هذا الدور العالمي، فلا بد لنا أن نتبين قواعده وأسسه، وخصائصه التي يبنَى عليها لأنه لا بناء دون أسس، وهل يمكننا أن نصل إلى ذلك كله دون تنظير؟.

س: هل يعَد من الأدب الإسلامي أي نتاج أدبي ينسبه صاحبه إلى الإسلام؟..

ج: للأدب الإسلامي دور كبير في تحويل البشرية ـ كما أسلفت ـ وريادتها إلى الحق، وفي الارتقاء بالآداب والفنون، على ضوء تكريم الله للإنسان واستخلافه في الأرض، لذا فإنصافاً لآفاقه الراقية، ودوره العالمي والإنساني، يجمل بنا أن نعلي من قيمته الفنية، وأن نرتقي بنتاجه فلا نقبل فيه ولا نسمي أدباً إسلامياً إلا ما توافرت فيه الشروط الفنية، ولا نتعجل إضفاء التسمية (الأدب الإسلامي) على كل نتاج أدبي يمت إلى الإسلام بصلة تقليدية، بدعوى الاستكثار أو التجميع أو الإعلام. إن الأديب الإسلامي هو الأديب الذي تتوفر في نتاجه مقومات الأدب الإسلامي وخصائصه، ويعني هذا أن يتكيف الأديب مع هذه المقومات والخصائص ويتمثلها، ثم يعبر عنها تعبيراً فنياً رفيعاً، كفاء رفعة آفاقها ليكون أدبه إسلامياً.

س: هل تمكن الأدباء الإسلاميون أن يستوعبوا بنتاجهم الأدبي آفاق الأدب الإسلامي وعوالمه؟.

ج: مع استبشارنا بالحصيلة الطيبة من النتاج الخيّر الذي قدمه الأدباء الإسلاميون القدامى والمعاصرون، تظل آفاق الأدب الإسلامي وعوالمه أوسع من تناولهم وأكثر امتداداً وهذا ما يتيح للأدباء الإسلاميين المعاصرين، شعراء وروائيين، ومسرحيين، وكتاباً، فرصة التنوع والامتداد إلى آفاق مترامية الأطراف من الموضوعات، تشمل الوجود والحياة.

س: ما موقع الأديب المسلم في أوساطنا الأدبية؟. وما العقبات التي تعترض طريقه؟..

ج: إني لأفعَم إكباراً للأديب المسلم المعاصر الذي يشق طريقه في الصخر، في خصب وعناد، ويتنامى نتاجه في أوساطنا الأدبية المعاصرة بقوة

وثقة يحفزها الإيمان، يحمل في ارتقاء تصوره، وعمق دلالته، وسمو آفاقه، وروعة كلمه، مما ينشىء أمة، ويرسي قواعد حياة وجدانية راقية، يحوز ذلك كله بجهده ووسائله الخاصة، ولا يبذل له، حتى الأقربون ما يكافىء نور إبداعه، رعاية وعوناً على نشر إنتاجه، واحتلاله مكانه المناسب في المجتمع.

وأمامنا مما تنشر الصحف والمجلات الكثير مما لا يرقى إلى نتاج أدبائنا الإسلاميين، ولكنه يحظى بمن ينشر، ومن يعرِّف، ويروِّج، ويعين، في حين يظل نتاج الأديب المسلم ولحظاته المضيئة التي تكشف للإنسان المسلم الطريق حبيسة الأوراق سنوات، ومع ذلك نستنكر في أوساطنا الإسلامية الأدب الماجن والمتحلل، والأدب المتغرب، والأدب المنحرف، ونظل في دائرة السلب لا نتعداها إلا قليلاً، فمتى تنهض المؤسسات الإسلامية برعاية الأديب المسلم، وكفالة نتاجه ونشره، والتعريف به، ودفعه إلى التألق في الأوساط الأدبية؟.

س: لقد ذكرتَ حقوق الأديب المسلم على المجتمع الإسلامي، فما حق المجتمع الإسلامي على الأديب المسلم؟.

ج: إن رعايتنا الأديب المسلم ستثري من نتاجه، وتعضده في مكابدة عناء النشر، وكفالة التعريف بالنتاج وترويجه، إننا حين نصنع ذلك، ونرفع من قيمته في الأوساط الأدبية، نستطيع أن نسدي إليه النصح والتوجيه، ونذكّره بحق المجتمع عليه؛ أن يعيش قضاياه، ويعبر عن طموحاته وأمانيه، وأن يرسي، قبل ذلك، دعائم الحق والخير فيه، وذلك من خلال النتاج الأدبي الرفيع الذي اقتات نفسه ومشاعره، وريادةِ الآفاق المتنوعة المتكاملة التي تشيد بناءه الوجداني، مع نكران للذات، وبُعد عن التماس الشهرة، واحتساب ذلك كله عبادةً لله، وإنما يقوم الأديب المسلم بدوره هذا ممارسةً لذاته، وتعبيراً عن إيمانه ومنهجه في الحياة.

س: ما مكانة الأدب الإسلامي من الآداب العالمية المعاصرة؟.

ج: لو مسح أبناء عصرنا عن قلوبهم غشاوة التبعية التي دهمتنا في مطلع العصر الحديث، وأدركوا ذخائرنا الفكرية، وزادنا العقدي، اتضح لهم أننا نقف على قمة شامخة في الفكر والأدب، فتصورنا للوجود والحياة أشمل تصور، وأكمل تصور عرفته المدنية والحضارة البشرية، لذلك فإن الأدب الإسلامي حين تقيَّض له المواهب الفنية الفذة، يقدّر له أن يفوق الآداب العالمية طُراً، بعمق نظرته، وشمول دلالته على حقائق الوجود والحياة، فهو الأدب المؤهل أن ينتشل البشرية من القلق والتمزق الذي تعيشه الأجيال الحائرة في ديار أوروبة وأمريكا ومن سار على طريقهم في بلادنا، وهو الأدب الذي يثري طريق البشرية بما يعلي إنسانية الإنسان ويؤلق دوره الإيجابي.

س: ما دور الأديب المسلم في تعضيد مكانة الأدب الإسلامي العالمية؟.

ج: إنه ليسعدني، تدليلاً على طاقة آفاق الأدب الإسلامي، أن أقول بكل ثقة: إني ألفيت خلال أبحاثي نتاج الشعراء والأدباء الإسلاميين، بمبادراتهم الذاتية، قد فاق، آفاقاً ومضامين، كثيراً من نتاج الأدباء الأوروبيين الذين يشيد بذكرهم جيل المتغربين من الأدباء والباحثين عندنا، جهلاً بتراث أمتهم وذخائرها الفكرية والعقدية، وإن كان أدباؤنا الإسلاميون في حاجة إلى مزيد من المهارة التقنية والتكوين الفني، فإن آفاقهم وعوالمهم قد فاقت الآداب الأوروبية، وعندي الشواهد لذلك.

إن الأدب الإسلامي، بما فيه من آفاق عليا وتصور راق للوجود والحياة، ليضع الأدباء الإسلاميين أمام مسؤولياتهم في الارتقاء بنتاجه، واستيعاب آفاقه، وبلوغ مستوى شموله ونظراته وذخائره، وذلك من خلال إبداعهم الفني، الذي يؤمل له أن يزوَّد بأرقى الوسائل التقنية في التعبير،

ليذكر لهم التاريخ كيف حملوا هذه الراية الإنسانية ولعبوا أكبر دور فني في العصر الحاضر. ولكن الطريق طويل وشاق، ويقتضي الصبر ونكران الذات، فجني القطاف قد يطول أمده، ولكنه سيكون أعـذب قطاف، وأشمله، وأدومه.

والله الموفق.....

* * *

مَا هُوَ الأَدَبُ الإِسْلَامي ؟

كثر التساؤل في الأوساط الأدبية المعاصرة عن الأدب الإسلامي، وتناثر الكلام حوله عاماً مجملاً.. لذا أطرح فيما يلي بعض هذه التساؤلات ثم أجيب عليها، لألقي الضوء على مدلول الأدب الإسلامي..

من هذه التساؤلات: هل يُعَدّ من الأدب الإسلامي أيّ نتاج أدبي ينسَب إلى الإسلام؟؟ وهل من الأدب الإسلامي أيّ أشعار قيلت في مدح الرسول ﷺ، أو ما ورد في التراث من نثر صوفي، أو أيّ تحليل لشخصيات إسلامية؟؟.

والجواب: إن الأدب الإسلامي ليس كلُّ ما ورد فيه ذكر الإسلام، وإنما هو مصطلح نقدي له خصائصه ومميزاته. الأدب الإسلامي تعبير جميل عن حقائق التصور الإسلامي، من كون وحياة وإنسان، وقيم ومثل، وغاية وجود، تتسع موضوعاته لقضايا الحياة والوجود كافة، وله في كلٍّ رؤيةٌ أدبية متميزة ووجهة نظر، يجلو ذلك، على مستوى رفيع، إبداع الأديب المسلم في أصالة ومعاناة.

إن الأدب الإسلامي يلتقي في إبداع نتاجه الحسُّ الإسلامي بالحسّ الأدبي الفني فالشعر الجمالي الخالص إذا صدر عن حسّ إسلامي أدب إسلامي، والشعر أو النثر الصوفي أو المدائح النبوية إذا صدرت عن تصورات

مختلطة، بعضها غير إسلامي، فلها تقويمها الخاص بها، ومن ذلك تناول شخصيات إسلامية بخلفية وافدة. إن الأصالة المنفتحة التي تصهر المعطيات الخارجية بالحس الإسلامي والتصور الإسلامي هي طريق الأدب الإسلامي، لا الانغلاق، ولا التغريب، ولا الاختلاط.

من هذا يتضح أن الحديث عن الأدب الإسلامي يستلزم دقة، وعمقاً، وأصالة في البحث لا يجزىء فيه التعميم أو النظر التقليدي، وإنما يفيد البحث الموضوعي المتخصص والشاهد الناطق بخصائص الأدب الإسلامي، ومن ثم التقويم الفني للنتاج الأدبي من خلال تمثله لهذه الخصائص أو عدم تمثلها، وفي ذلك بسط قول لا تجزىء فيه الكلمة الموجزة. ولقد كان لي حظ البحث في الأدب الإسلامي في موضوعات متعددة أهمها:

(الإنسان في الأدب الإسلامي، تأصيل وتحليل)[١]. . أوردت فيه زهاء أربعين شاعراً جلهم من المعاصرين تبلغ منتقياتهم ألف بيت ونيِّف، تتمثل فيها خصائص الأدب الإسلامي فنياً، كما أوردت خمساً وعشرين رواية وأقصوصة منتقاة وعشر مسرحيات، تتوفر فيها خصائص الأدب الإسلامي، عدا المقالات الأدبية التي تُعَدّ بالمئات.

ولعله يصعب أخذ الصورة الكاملة لنتاج الأدب الإسلامي إلا بالعودة إلى البحث وموضوعاته المتكاملة، ولكني أعرض هنا بإجمال لما يُشعر بهذا اللون المتميز من خلال موضوعين هما:

رسالة الإنسان، والقضية الجمالية.. يصور الشاعر محمود حسن إسماعيل رسالة الإنسان في الحياة من خلال حركة الإسلام التحريرية الكبرى التي أزالت الطغيان وألّقت إنسانية الإنسان، حيث نلاحظ روح الانتماء، وصفاء التصور..

---

(١) موضوع رسالة دكتوراه لمؤلف الكتاب من كلية الآداب بجامعة الإسكندرية.

من ها هنا، والنورُ لم يغفَلْ سناهُ أبداً
ورايةُ الإسلام، لم يترُكْ ضُحاها أَحَداً
وكيف؟ والسماءُ خطَّت فوقَها مُحمَّداً
محرِّرُ الإنسان، داهي الرقِّ والهوانِ في جبينِهِ
بثورةٍ شبَّتْ على تكالب الأغلالِ في يمينِهِ
فذوَّبتْ قيودَه بصيحةِ القرآنْ
وأضرمَتْ وقودَه في جبهةِ الطغيانْ
وحرَّرَتْ وجودَه من قبضةِ الأوثانْ
وحرَّمتْ سجودَه إلا إلى الرحمنْ
من ها هنا حُداؤها مدَّ الخطا وسار في قوافلِهْ
وفجَّر الضياءَ، يسقي ظلمةَ الوجودِ، من مناهلِهْ

أما الشاعر عمر بهاء الأميري فيجلو رسالة الإنسان في الوجود، بوصفها دورةَ الدهر، هي من روح الله ومن أمره..

كـان دينُ الإسلام مـذ كان هـدياً لـلـبـرايـا، ورحـمـةً وأمـانـا
وستبقى فينـا حـوافـزُه الـمُثلى ويـبـقـى فـي أمـرِنـا فُرقانـا
ستـرى أعينُ العصـورِ انبثـاقـاً من ديـاجيرنـا، لِنـورِ هُـدانـا
النـواميسُ في ركـابـكَ يـا إسـ ـلامُ تمضي وتستحثُّ الـزمـانـا
مـوعـدٌ مبـرمٌ إذا مـات عنـه شيخُنـا القَـرْمُ، فيـه ينمـو فتـانـا
علمُ الكـون في غـدٍ ونشيـد الـ ـكـونِ طُـرّاً، وخـطُّنـا، وخُـطانـا
ونجـاةُ الـوجـود في القـدر المر صـودِ أمـرٌ يـحـكِّـم الـقُـرآنـا

وأما القضية الجمالية فنعني بهـا النظرة الجمـالية المتميـزة للأدب الإسلامي التي تنبع من طبيعة الإسلام، ومبادئه، وجمالياته، وتمتاز بالدقة، والتناسق، والحركة، والشمول، والتجدد، والتطهر.. يتمثل الشاعر عدنان نحوي فيها كلية جمالية، من خلال الرابطة الحية التي تضم الوجود المخلوق

كله، من إنسان وحيوان وطير ونبات، تعنو كلها لله، وتمضي على ناموسه وهداه..

أيُّ لونٍ من الخيال تلقّاه بوادٍ مرفرفٍ وحُزونِ
وطيورٍ على الأفانينِ ألحانٌ ورجْعٌ من الصّدى والرنينِ
كلُّ لحنٍ صدىً لخفقةِ لونٍ كلُّ قَطْرٍ صدىً لخفقِ عيونِ
همساتُ الدعاءِ لِلّه تسبيحٌ ورجعٌ من سِرِّه المكنونِ
كلُّ ما تجتلي العيونُ عليه هو من خفقةٍ لماءٍ وطينِ
صاغها اللّهُ نفحةً وحباها نسمةً من هُدىً وفيضٍ معينِ

وبعد، إن من خصائص الأدب الإسلامي، وقد ألممنا ببعض آفاقه:

١ ـ توسيع المضامين الأدبية، وتحريرها من التقليد والتبعية، لأن الأدب الإسلامي حين يستلهم مضامينَه من عوالم الإسلام وآفاقه الشاملة: يمتلك أشمل تصور عرفته الآداب الأخرى، ولأن الأدب على طريق الإسلام الخصب سينتج ويبدع، حين يجد الطاقات الموهوبة دون توقف، ليستوعب ما يطيق من معطيات الإسلام الثرة التي لم ينتج فيها الأدباء إلا الجزء اليسير.. من تلك المضامين نظرة الأدب الإسلامي الفريدة إلى الإنسان، وموازنته فيه بين المادة والروح بما يضبط السلوك البشري ويسير به على ناموس الكون، ومن ثم إشعار الإنسان بمكانته ودوره في الوجود وغاية وجوده في إنشاء حياة إنسانية رفيعة، مهتدية بهدى الله، سائرة على ناموسه.

٢ ـ النظرة الإيجابية إلى الحياة، فالحياة في الأدب الإسلامي مشرقة، الكون فيها جميل حي متناسق، متعاطف مع الإنسان، والمخلوقات كلها أصدقاء للإنسان، والإنسان مكرّم ذو إرادة وطاقة، والغاية واضحة، والحياة ممتدة.. هذا كله يمنح الإنسان قوة دافعة، واستبشاراً بالحياة، وإقبالاً على العمل والنتاج، على النقيض من النظرات السود التي ترى في الحياة لعنة

الوجود، أو تراها خالية من الغاية، تُـملأ بانتهاب اللذات.

٣ ـ النظرة الجمالية الواسعة التي تجاوز بها الأدب الإسلامي النظرات الجمالية المادية المحدودة، بشمول النظرة الإسلامية التي تضم أطراف الوجود مادة ومعنى، شكلاً جميلاً، وقيماً جميلة، من خلال كلية تعد الجمال أصلاً في بنية الكون، وفي خلق الإنسان والمخلوقات، صفات، ومعاني، ومشاعر، بما يرفع من شأن النظرة الجمالية ويغنيها.

إن الأدب الإسلامي ـ بتصوره الراقي وآفاقه الشاملة، يمكن أن يكون ملاذ الإنسان الحائر في شتى أنحاء العالم، يقدم له الدور الإنساني الذي أضاعه، والتصور الإنساني للغاية والهدف الذي يعيش له الإنسان في هذه الحياة، فلا نرى البشر ـ كما هو في أكثر ديار العالم اليوم ـ ذراتٍ هائمة لا تعرف طريقها ودورها، وقد تختصر الطريق بالحروب والانتحار، إن الأدب الإسلامي يمكنه ـ إن قدِّرت له المواهب الفنية الراقية ـ أن يحرر البشر ـ على المستوى الأدبي ـ من نزعات الضياع والشتات والقلق والاغتراب، وأن يكون فتحاً جديداً للنفوس البشرية، بما يمنحه من عالم إنساني راق، يرسي قواعد إنسانية الإنسان، على نحو لا نرى له نظيراً في النظرات الأخرى..

الأَديبُ المُسْلِم.. هَلْ رَعَيْنَاهُ؟

شقّ الأدب الإسلامي طريقه في أعمدة الصحف وسطور الكتب والمجلات، وتنامى نتاجُه في عالمنا المعاصر بقوة، وامتداد، وثقة، ولا غرو فهو الأدب الذي يحمل في ارتقاء تصوره، وعمق دلالته، وسمو آفاقه، ما ينشىء أمة، ويرسي قواعد حياة وجدانية رفيعة. واستقبله الجيل الجديد من المثقفين بلهفة واستجابة، يتابعون ما يصدر من نتاجه، يتنسّمون أرَجَه، ويترشّفون غُرَره.

هذا الأدب الذي تستقبله الناشئةُ المثقفة بالاحتفاء والابتهاج، وتتلقف نتاجَه النفوسُ المتأدبة المؤمنة، ماذا قدّمنا لمن كان السبب في ولادته وبزوغه؟ ماذا قدمنا للأديب المسلم، صاحب الفضل في تأليق الكلمة المؤمنة؟ هل وفّرنا له المناخ الذي يواصل فيه نتاجه؟ هل أوليناه من الرعاية ما يكافىء نور إبداعه كفالة، وعوناً على نشر نتاجه، واحتلال الموقع المناسب في المجتمع؟.

لقد كابد الأديب المسلم في الإعراب عن تجربته المشاقّ وسط ظلمات الجاهلية، فتقدم إلينا بذوب قلبه، ورحيق نفسه، يسعى إلى نشر كلمته حتى بلغتنا، وما بلغَنا منها إلا القليل، ولا يزال كثير من أقباس هذا النور يلفّه الظلام..

هذه نفوس مترعة بالمواجد المؤمنة تهدي إلينا زاد القلوب، وريحان النفوس ونضن عليها بأقل القليل، الكفالة والرعاية والنشر.

لطالما سكب الشاعر المسلم على أديم الورق..
حُشاشَة قلبه..
وحباتِ فؤاده..
كلاماً رفّافاً، مجنّحاً، مؤمناً..
اقتاتَ قلبَه معاناةً، وذَوْباً، وتفانياً..
فتحدّثَ بمشاعرنا..
ونطَقَ بأفئدتنا..
وأدار كامن انفعالاتِنا واهتماماتنا..
فأيقظنا من سُبات..
وأحيا في قلوبنا الصمود والثبات..
جزيناه على ذلك كله، بالاستماع، والصمت، فالنسيان..
طمرنا نتاج القلب الرهيف في مشاغل الحياة..
وأنسِينا تلك اللحظات الفائقة..
جلا لنا فيها الأديب ذواتَنا الرفيعة في ظلال الإيمان..
وخطّ لنا الطريق حيّاً على لهاة المشاعر والوجدان..
هذه حال الأديب المسلم..
هذه الأيام..
رحلة بين الخصب والخذلان..
واعتسافٌ بين الوجدان والنكران..

وإن كانت الأقلام المؤمنة المتأدبة قد جلت ملامح من نتاج هذه النفوس الوضيئة، وأفسحت لها مجلةً مؤمنة الطريق، فإن جل هذا النتاج الرفيع، لا يزال في الظل، يرتقب النشر، وإن أتيح له النشر لا يزال يرتقب

التعريف والتأليق والتفسير، وأمامنا مما تنشر الصحف والمجلات الكثير، لا يرقى رقيّ نتاج أدبائنا الإسلاميين، ولكنه يحظى بالمؤسسات التي تنشره، وتعرِّف به، وتروِّج، وتقرِّظ.

وتظلّ النفوس المتأدبة المسلمة تحبس جلّ نتاجها، تحبس لحظاتها المضيئة التي تكشف للوجدان المسلم الطريق.. ومع ذلك نستنكر في أوساطنا الإسلامية الغزو الفكري الأوروبي، والأدب الماجن المتحلل، والأدب المتغرِّب، ولكننا لا نجود بدعم الأديب المسلم، ونشر نتاجه، وفي دعمِنا خيرُ ردٍّ على الغزو والانحراف.. فمتى ننهض برعاية الأديب المسلم؟ بكفالة نتاجه ونشره، بالتعريف به، بمنحه حقَّه من التألق الإيماني في الأوساط الأدبية، لكي يحتل موقعه الأصيل مكان الآداب المنحرفة، والنزعات الشائهة؟.

متى نتقدم إلى كفالة الأديب المسلم، لنحظى بنتاج أصيل يؤدِّب أبناءنا، ويرقى بأذواق ناشئتنا، فيكوِّن فيهم الرؤية الإسلامية.. والشخصية الإسلامية.. والذوق الرفيع؟..

أدبنا والأساس الفكري

لعل من أبرز البواعث في دعوتنا إلى المفهوم الأدبي الأصيل، الذي يتخذ من التصور الإسلامي للوجود أساساً فكرياً، وخلفية أدبية، أن المُحْدَثين من النقاد الكبار، حين يشيدون بالأعمال الأدبية الممتازة غربية أو شرقية، كثيراً ما يُرجِعون خلودها أو امتيازها إلى أن أصحاب هذه الأعمال الأدبية يمتلكون فلسفة معينة أو فكرة بارزة عن الحياة، تميِّز كل صاحب نتاج، كما أن نقادنا كثيراً ما يعزون تقصير أدبائنا المحدثين عن الركب العالمي إلى فقدانهم الأصول الفكرية المميزة لنتاجهم، وهكذا يقررون أن لا بد لكل أدب خالد من أساس فكري، يميِّز عالمه وموقعه الفريد من الحياة، فهل نجد في التصور الإسلامي للوجود ما يملأ هذا الفراغ في أدب عصرنا..؟

إننا لنستطيع القول بأن التصور الإسلامي للكون والحياة والإنسان آصل وأصدق ما يعتمده أدبنا أساساً فكرياً في صياغة تجاربه الفنية، وأقرب منهل في حياتنا الاعتقادية والشعورية، ولقد تعاملنا في أزماننا الزاهرة مع هذا التصور الأصيل في حياتنا وثقافتنا، فلم نضِلّ عن منطلقنا، في حينِ سامتنا عصورُ التخلف ضياعاً عن المنطلق، وفقداناً لمعالم التصور، فكان أن لفّق البعض لملئه خلفيات مستوردة، وأسساً فلسفية غريبة، بعيدة عن تصورنا للكون والحياة، أملتها علينا ظاهرة التقليد للغرب والشرق، والأخذ عنهما في كل شيء، ولم نفطن إلى أن الأساس الفكري للحياة لا يُستورَد من خارج، بل

هو عنوان ذاتية الأمة، وجوهر شخصيتها، عنه تصدر مناهجُ حياتها ونظُمُها ومن ثَمّ أدبُها وحضارتها.

لذا لا بد لنا أن نؤكد بأن المنطلق الواضح الذي ندرك به غاية وجودنا الإنساني، من خلال رسالتنا الإسلامية الرائدة، إنما هو التصور الإسلامي للوجود الذي يعبر عنه قرآننا الكريم، وسنة نبينا ﷺ أتم تعبير وأكمله.

إن هذا التصور الأصيل ضروري لاستمداد أدبنا، كما هو ضروري لصياغة حياتنا الأصيلة فهو الذي يرسم لنا بجلاء ووضوح، على أساس من العقيدة الإسلامية، ما يفسر الحقائق الكبرى التي نتعامل بها، ويقرِّبنا من إدراك طبيعة العلاقات والارتباطات بين هذه الحقائق، وما بينها جميعاً من تعامل وارتباط، الأمر الذي يسعفنا بالتعبير عن الوجود تعبيراً متَّسِقاً مع نواميسهِ ونظُمه، كما يجلو هذا التصور، ويتفرد رائع، مركزَ الإنسان في هذا الوجود الكوني وغايةَ وجوده الإنساني، ومن خلال هذه المعرفة، يتجلى دور الإنسان في الكون وحدود علاقته بخالقه وخالق هذا الكون جميعاً، وعلى ضوء هذا التفسير الشامل يتحدد منهجُ حياة الإنسان، ونوعُ النظام الذي يحكم الحياة الإنسانية بمجالاتها جميعاً، بما فيها المجالات الفكرية والوجدانية ويتسق المنهج والنظام مع هذا التفسير الشامل للوجود، وينبثقان منه انبثاقاً ذاتياً انبثاق الفرع من الأصل، إن التخلخل في هذا الاتساق وهذا الانبثاق يجعل من نظام الحياة نظاماً مشوَّهاً لا يحمل مقومات النشوء العضوي الصحيحة، ويكون ظاهر الفشل سريع الذبول[1].

مصداق ذلك ما نراه من صدام في الأنظمة الأرضية الحاضرة مع الفطرة البشرية، وشرود عن حاجات الإنسان الحقيقية، الأمر الذي يجرِّع الإنسانَ اليوم الشقاءَ والحيرة وعدم الاستقرار عند الأمم التي تسمَّى أكثر مدنية ورقياً.

---

(١) انظر خصائص التصور الإسلامي ومقوماته، سيد قطب، مصر ١٩٦٢ ص: ٣.

قد تكون ظاهرة الصدام بين الفطرة البشرية والنظم الأرضية الحاضرة، لها ما يفسرها في أوروبة التي تتبنى نظريات ذات أبعاد أرضية وفلسفات بعيدة عن المصدر الإلَهي، وقد صاغ أدباؤها نتاجهم حسب هذه التصورات الشاردة، فكانوا بعيدين جداً عن تصورنا الربّاني وتفسيره للوجود، وكان من المتوقع أن ينزلقوا إلى أخطاء كثيرة في التصور، شأن من يستمدون النظام الأرضي من مثل مقولاتهم بقهر الطبيعة، وصراع القدر، وحيوانية الإنسان، وحتمية التاريخ.... وما إلى ذلك، وهمْ في هذا إنما يتحدثون، من خلال ما ترسّب في ضمائرهم من نظرات إغريقية، ظلت تصرِّف أفكارهم ومشاعرهم بوعي أو بغير وعي، فأملت عليهم فلسفتهم في الحياة، ونظرتهم إلى الكون، وهذا ما عكَس ظواهر الحيرة والصراع والقلق التي تسود حياتَهم وتنعكس على آدابهم وفنونهم.

هذا شأن أولئك بعيداً عن ديار الإسلام وتصوره للوجود، أما ما يُعجَب منه حقاً، أن يُفتَن بعضُ أدبائنا وكتّابنا بنهجهم العاثر، فيسيرون بفعل الانبهار وراء تلك النزَعات الغريبة عن تصور أمتهم، والمجانِبةِ للأساس الفكري الأصيل لحياتهم وأدبهم، فينقلون إلى جسم مجتمعنا، عبرَ نتاجهم المتغرِّب صوراً من النزعات الشائهة المريضة التي يشكو منها أهلُها وديارها، ولعلهم يحسبون في عملهم إطرافاً أو سبْقاً إلى جديد، وما هو إلا المحاكاة، والتقليد، وأما طريق الجديد المنفتح على العالم فهو ما نبدعه نحن من نتاج بتصورنا وشخصيتنا المتميزة بعد أن نفيد من المعطيات العالمية ونسيغها بحسنا الأصيل.

وبعد: قد يكون الحديث عن دور التصور الإسلامي، كأساس فكري لأدبنا الحديث، جديداً على من أطال الاغتراب في الآداب الأجنبية، حتى يبدو له كالنظرية الجديدة التي ينبغي أن تؤكِّد وجودَها الموضوعي بالفلسفة النظرية والتطبيق العملي، لذا أود أن أؤكد هنا أن التصور الإسلامي للكون

والحياة والإنسان كنز فكري ووجداني، له مع كل حالة موقف ومع كل موقف رأي، وله مع كل قضية حل وعلاج، هـذا إلى سموق متفرد في عالم الحقيقة، بوصفه صادراً عن المعين الإلّهي، والقوة المبدعة لهذا الوجود التي ترعاه وتربّه، وترسي فيه التناسق والتوازن والانسجام.

إن التصـور الإسلامي للوجـود هـو مصـدر الاستمـداد في الحيـاة الإسلامية، تصدر عنه في جوانبها كلّهـا الثقافيـة والإعلاميـة والأخلاقيـة والاجتماعية والاقتصادية، فضلاً عن الحياة الأدبية موضوع بحثنا. . فالمسلم إذا شاء أن يعالج قضية من قضايا الحياة والوجود، فإن المعالجة الأصيلة إنما تكون بالرجوع إلى الأساس الفكري الذي يعيشه، والتصور الاعتقادي الذي يدين به.

ولما كان الأدب من المناشط الثقافية الراقية، لا يمس سطح مشاعر الإنسان وإنما ينفذ إلى أغوار مشاعره، وذلك بما يعكس من تجارب الإنسان ونشاطاته المختلفة، وإرثه التاريخي والثقافي. كان من البداهة أن يصدر الأدب عن تصور الإنسان، لحقائق الوجود، فيضم ذلك كله ويصهره بمشاعره ووجدانه، وعلى هذا بات من المسلّم به أن يكون أدب الأمة المسلمة تعبيراً عن التصور الإسلامي للوجود، يصدر الأدب الإسلامي عن حقائقه، منه يستمد مضامينه وأنماط فكره، ويسيغ المعطيات الثقافية والفنية الأخرى بمعينه واتجاهه وخطّ سيره.

ومن عَجبٍ أن يستمد بعض أدبائنا ومفكرينا نظراتِهم الأخلاقية من الأساطير، ولا يستمدونها من معين التصور الأصيل لأمتنا، وهذا نموذج له نظائر كثيرة في أدبنا، فالدكتور محمد مندور في معرض ثنائه على ثلاثية فتحي رضوان، التي تربط بين السياسة والأخلاق، يقص علينا أسطورة الإلّه «رع» ورعايته للأخلاق، فيستمد مثلَه الخلقي من أسطورته، وتغيب عنه آفاق

تصورنا الإسلامي ونظرته الأرقى للأخلاق، كما تغيب عنه مُثُلنا الخلقية الإسلامية التي عرفَنا العالم بها فيقول:

«ولقد ابتهجت روحي أيّما ابتهاج، عندما سمعت عالمَنا الأثَريّ الفنان الدكتور حسن صبحي بكر، وهو يقص علينا أمام إحدى اللوحات الحائطية قصة الإآله ـ رع ـ عندما أصابته الشيخوخة فاستخف به البشر، فصعِد إلى السماء حزيناً بينما أخذت ابنتَه «حتحور» ثورةُ الغضب على الشعب، فراحت تسفك دمه لتشربه انتقاماً لأبيها، ولكنّ أباها الشيخ الحكيم الطيب القلب (الإآله رع) لا يرضى عن سياسة ابنته العنيفة، ولا يطمئن إلى عواقبها.. وتهديه حكمته إلى أن يحتال على الأمر!! بأن يضع نوعاً من الجعة الحمراء ويأمر بسكبها على الأرض حتى إذا ظنّتها (حتحورُ) دماءً بشرية وشربتها سكرتْ ونسيت الثأر، وكفّت عن قتل الناس، وكان ما أراد، وأوقِفَتْ المذابح»[1].

إن التصور الإسلامي للوجود، له خصائصه ومزاياه التي تفرده من التصورات الأخرى، فهو تصور رباني اعتقادي موحَىً به من الله، وهو تصور ثابت المقومات والقيم الذاتية، تزاوِلُ الحركةُ في الوجود من خلاله، وهو تصور شامل، يضم بين راحتيه كل شيء، لأن الشمول طابع الصنعة الإلٓهية، وهو تصور متوازن، يساير ناموس الكون بمعاييره وتقديره وضبطه، وهو تصور إيجابي يرعى الروح الإيجابية في علاقة الإنسان بخالقه والوجود من حوله، فيصوِّر كيف يرعى الله الإنسان والكون من حوله، كما يرعى الروح الإيجابية في حياة الإنسان فيحيلها شعلة متّقدة بالفاعلية، وأخيراً هو تصور واقعي، يتعامل مع الذات الإلٓهية من خلال آثارها الإيجابية، كما يتعامل مع الإنسان

---

(١) انظر في المسرح المصري المعاصر، د. محمد مندور القاهرة ١٩٧١ ص: ١٨٤.

الكائن الواقعي، بطبيعته واستعداداته وخصائصه، كما يرسم له المنهج الواقعي الملائم لفطرته وطبيعته[1].

ولسنا بحاجة بعد هذا إلى القول بأن التصور الإسلامي للوجود والحياة، هو أرقى تصور وأشمل تصور عرفته المدنية والحضارة الإنسانية. وحين نرتضيه أساساً فكرياً لأدبنا، نتيح الفرصة لولادة أدب لا تدانيه الآداب الأخرى، حين توفّر المواهب الفنية البارزة..

* * *

(١) انظر كتاب «خصائص التصور الإسلامي ومقوماته» ص: ٤٥ ـ ٤٩.

المَنظُورُ الفِكرِي في الآدَاب وشخصيّة أمّتنا

قيمة المنظور

إن لكل عمل اجتماعي أو فنّي هدفاً، قد يكون هدفاً مُدرَكاً أو ملحوظاً وقد يكون هدفاً كامناً، ولكن لا يخلو من هدف أو منظور للحياة، يقول: (لوكاتش) أحد أقطاب الواقعية:

(فكل عمل إنساني يقوم على افتراض مسبق بوجود معنىً كامن فيه، والافتقار إلى معنى (أي هدف) يجعل العمل موضع السخرية، وينزل بالفن إلى مستوى الوصف الطبيعي)[1].

إن أعمال «كامي» تمثل انحداراً بالشخصية الإنسانية، فشخصيات (الطاعون) تبقى ظلالاً، لأن حياة شخصياته بلا اتجاه، بلا دوافع[2].

إن أهمية المنظور لتتجلى في كل ما يطالعنا من المعطيات الثقافية والاجتماعية والأدبية، فهو الأساس الفكري الذي يمنح النتاج قيمته الإنسانية، ونوعه، ومستواه، وهو الذي يجعل من النظرة الخاصة كياناً وذاتاً. . . والإنسان إنما يُعرف بمقوماته الإنسانية، بفكره، وعقيدته، لا بلحمه وعظمه، ويطرح دكتور نجيب الكيلاني المقولة التالية على صورة

(١) معنى الواقعية المعاصرة: ٤٢.
(٢) نفسه: ٧٤.

حوار بين أمير قومول المسلم في التركستان الشرقية والقائد الصيني، يقول أمير قومول في تقويمه للإنسان:

«أعرف أنَّ الإنسانَ ليس شحماً ولا دماً ولا لوناً فحسب، إنه الفكرةُ والمعتقد.. الأشياءُ العظيمة التي يؤمن بها الإنسان هي التي تجعلني أنظر إليه وأقيِّمه، فأحبُّه أو أكرهُه.. والفكر يعطي كومة اللحم والعظم معنىً وتقبلاً وشفافية.. الفكر يغطِّي الهيكل، يكسيه ثياباً.. يجعله إنساناً»[1].

والإنسان هو الذي يستطيع أن يختار وجهة النظر التي تلائمه في الحياة والمنظور الذي يلبي كينونته وتطلعاته، ويجعله في سلام وسعادة مع نفسه.

البحث عن تصور

وفي عصرنا الحاضر نلتمس وسط غمار الفلسفات والتصورات المختلفة تصوراً عن الوجود والحياة يحدد موقفنا، فأي تصور نختار لحياتنا ووجودنا، نحدد من خلاله نظرتنا للإنسان؟.

إن أحد الباحثين المعاصرين عرض لهذا الموضوع، فاختار لشعرائنا المعاصرين تصور الإنسان الغربي أساساً فكرياً لنتاجهم يقول:

«مفهوم الحداثة... هو تصور جديد تماماً للكون والإنسان والمجتمع، والتصور الحديث وليد ثورة العالم الحديث في كافة مستوياتها الاجتماعية والتكنولوجية والفكرية، ولذلك فهي ثورة عالمية... وإن قادتْها حضارة الإنسان الغربي، وشعراؤنا الحديثون عندما يبلؤون من مستوى هذه الحضارة (الغربية) فهم يشاركون فيها في نفس الوقت»[2].

إنه تصور من منطلق التغريب، لا يحدد وجهة معينة، ودعوة للاندماج

---

(١) ليالي تركستان: ٢٣.

(٢) شعرنا الحديث إلى أين: غالي شكري ص: ١١٤.

في الحضارة الغربية باسم العالمية، ونتساءل بعد هذا هل للأوربيين تصور متميز للحياة ونظرة خاصة للإنسان؟ يمكن الاعتماد عليها، أم إن أوربا نفسها تبحث عن تصور للحياة والوجود؟.

أما ألكسيس كاريل العالم الأوربي فيحدثنا من أوربا نفسها عن جهل أوربا ابتداء بحقيقة الإنسان، فكيف تصنع له تصوره؟ يقول:

«إننا لا نفهم الإنسان ككل، إننا نعرفه على أنه مكون من أجزاء مختلفة، وحتى هذه الأجزاء ابتدعتها وسائلنا.. وواقع الأمر أن جهلنا مُطبق، فأغلب الأسئلة التي يُلقيها على أنفسهم أولئك الذين يدرسون الجنس البشري تظل بلا جواب، لأن هناك مناطق غير محدودة في دنيانا الباطنية ما زالت غير معروفة فمن الواضح أن جميع ما حققه العلماء من تقدم فيما يتعلق بدراسة الإنسان غير كافٍ وأن معرفتنا بأنفسنا ما زالت بدائية في الغالب»[1].

ويذكر لنا الدكتور عماد الدين خليل أن أوربا قد ضلت في العثور على تصور، وسطَ تشتت المبادىء والاتجاهات الفكرية في أوربا، وعدم استقرارها على مضمون للحياة والوجود:

«وستظل أوربا (وروسيا وأمريكا بطبيعة الحال) تطرح مضامينها على الناس، مضموناً يناقضه مضمون، ومذهباً يكتسحه مذهب، ستظل تتقاذفها المبادىء والاتجاهات والمدارس المسرحية، ما دامت في حياتها ووجودها لم تستقرّ بعدُ على مضمون ولا آمنت بفلسفة، ولا ألقت القياد إلى ربّان ماهر يقود سفينتها المتعبة إلى شاطىء الحرية والعدل والسلام»[2].

(١) الإنسان ذلك المجهول: الكسيس كاريل تعريب شفيق أسعد فريد بيروت ص ١٧ ـ ١٩.
(٢) في النقد الإسلامي المعاصر: دكتور عماد الدين خليل، بيروت، ط أولى ١٣٩٢ ـ ١٩٧١ ص ١٨٣.

ويعرض لنا أحمد رائف خلال حوار بين شخصيات أوربية في مسرحية «البعد الخامس» يستعرضون النظم المعاصرة وإفلاسها، باحثين عن طريق منقذ، وذلك قبل أن تتوجه بهم المركبة إلى المريخ حيث العالم الثاني الذي ينشدون:[1]

رينهارت: الأمر الأكثر مرارة وقسوة أن يعيش الإنسان في عالم يصنع الجريمة ويباركها ويعلمها للأولاد الصغار.

ليديا: كم نحن في حاجة إلى نبي جديد، يشرق بروحه على ضعف البشر.. مسيح جديد.. يتسع قلبه للأخطاء والهفوات، ويعلمنا كيف نسير.

رينهارت: (بحرارة) مسيحٌ جديد؟ حتى نصلبه مرة أخرى؟.... إنّ في داخلنا شيطاناً ماكراً لا يريد أن ينقاد... إننا نصنع عارنَا ونباركه.. نخطُف القوت من أفواه اليتامى والأرامل لنملأ به بطونَنا المكتظة المتخمة، ونرقص بعد ذلك في الوحل... الإنسان يتحرك بحماقة شديدة فوق الأرض.

ميرهارد: إن مشكلة الأبيض والأسود وصمة عار في جبين الإنسانية كلها. وهذا العار يصِم كل من سمع بهذه المسألة.

ليديا: لم يبق لنا سوى الديمقراطية يا خالي.

رينهارت: الديمقراطية؟ ما هي على وجه اليقين؟ ما حقيقتها؟ إنها خرافة هائلة حشَوا بها رؤوسنا وقادونا بها كالنعاج الهائمة السادرة في الشهوات والملذات، إنها الأكذوبة الكبرى التي يعيش فيها عصرنا الآن....»[2].

---

(١) شخصيات الحوار هنا: رينهارت: عالم الذرة السويدي الضائق بمحاصرة الشرق والغرب له لاستغلاله. ليديا: ابنة أخت عالم الذرة، ميرهارد: خطيب ليديا ومراسل يونايتدبرس.

(٢) البعد الخامس: ٦٢ ـ ٦٣.

أما الدكتور محمد مفيد قميحة، في صدد حديثه عن «المذهب الإنساني» فيورد أن الإنسانية وجدتْ نفسَها بعد اندحار طويل في مبادىء الثورة الفرنسية، ثم لا يلبث أن يعود ليتحدث عن فشل «المذهب الإنساني» الذي ظل دعوة مثالية نظرية لم تتعدّ حدود الصفحات والأقوال وظل الواقع المعاش بعيداً عنه[1].

مزايا التصور الإسلامي للوجود والحياة

ولعلنا لا نجد بعد هذا العرض فيما ورد من تصورات مستوردة غناء في حياتنا وأدبنا ووجودنا وبات التماسنا لتصورنا الإسلامي للوجود والحياة طِلبةَ شخصيتنا الأصيلة لأن ما من أدب يمثل أمة ويستورد لها القواعد الفكرية والحلول الاجتماعية لقضاياها بما يباين شخصيتها وفكرها واعتقادها ونظرتها إلى الوجود.

والتصور الإسلامي للحياة والوجود، من ثَم ضرورة للإنسان المسلم، به يدرك التفسير الشامل للوجود، وطريقة تعامله مع هذا الوجود، وبه يعرف مركزه، وغاية وجوده، ومنهج حياته، والطريق الذي خطه له الخالق منسجماً مع فطرته ودوره في الوجود، وإرساء قواعد الحياة ونظمها على أساسه.

ومن مزايا اختيارنا التصور الإسلامي أساساً فكرياً لأدبنا أن يختار الأديب المسلم مضامينه وقضاياه في أصالة وحرية وتميُّز. . . . يطرح مضامينه الكبرى وهو حر طليق من قيود المدارس الأدبية الأوربية التي فرضت نفسها على العصور. وكانت في كثير من تصوراتها بعيدة عن الإسلام ونظرته إلى الكون والحياة أو كانت انعكاساً لعصور سادها تطرف في جانب من جوانب الحياة والفكر، وانكماشٌ وضمور في جوانب أخرى،

(١) انظر الاتجاه الإنساني في الشعر العربي المعاصر: ٣٠ ـ ٣١ و ٣٨.

وربما كانت في بعض الأحيان إفرازاتٍ مَرَضية يطرح غثاءها فرد أو جماعة أو حضارة يحيط بها الضياع[1].

المنظور والأصالة

وبذا نضع أيدينا على حقيقة ربما غابت عن أنـظار بعض المشتغلين بالأدب، وهي أن منطلق الأصالة في الإبداع الأدبي ينبثق ابتداء من منظور الأمة الأصيل ووجهة نظرها في الحياة، وهو ما يعبر عن شخصية الأمة الحضارية ودورها المتميز في الحياة، مع الانفتاح على المعطيات الأدبية في العالم فيما لا يتنافى مع منظور الأمة الأصيل، أو صهر ما يفد من هذه المعطيات بطابعه.

---

(١) انظر في النقد الإسلامي المعاصر: ١٨٤ ـ ١٨٥.

الأصالة في الأدب

تعبير عن الشخصية الإسلامية

لما كان الحديث عن الأدب الإسلامي جديداً على الأسماع التي ألفت طرح المقاييس الأجنبية في الأدب دون اكتراث بالمقاييس الأصيلة، حسُن قبل أن نعرض لآفاق الأدب الإسلامي وأبعاده، أن نعرض لتلبية الأدب الإسلامي ما تنشده أمتنا المسلمة من تعبير أصيل عن شخصيتها الحضارية. فما هي الأصالة في الأدب، وما طريقها؟ وما آفاقها؟.

الأدب في أمة تقويم لحياة الإنسان فيها وانعكاس لتطلعاته وآماله، وتاريخ صادق لمراحل نهضته وانبعاثه، يعكس فكر الأمة وما يعتلج في مشاعر أبنائها، وهو مرآة لفكر الإنسان وحياته الوجدانية.

ونستطيع إذا شئنا أن نزود أدبنا من ينابيع أصالتنا ووجودنا، بوصفنا أمة ذات تراث عريق وذات أهداف رفيعة، وأنه ليس ما يلزمنا برأي دون آخر مما يطرح في العالم من آراء في الفن والأدب إلاّ ما يرقى بأمتنا، ويوسع من عوالمنا، ويصوغ وجداننا الإنساني، بما يحقق شخصيتنا الحضارية، ففي ابتعاثها حل لأزمة التعبير في أدبنا بإحلال الأصالة والتميز مكان التغريب:

«إن الشخصية الحضارية هي حل لكل هذه الأزمات الأدبية والفنية

والفكرية التي يزخر بها السوق الأدبي والفني والثقافي كما انحلت كثير من أمثالها في الآداب الأخرى»[1].

إن الأدب لون من الفكر، يصل ماضي الإنسان بحاضره، وبه يستشرف مستقبله، لذا كان الأدب الذي لا يصدر عن قيم الإنسان وفكره الأصيل أبتر لا جذور له، لا يلمس في نفس الإنسان الأصيل أوتاراً، ولا يعديها بأثره، ونرى الأدب الذي زورته الأقلام عن تجارب الغير، ولم تعتصره القلوب، لا يصنع نفوساً ولا يروي تطلعاً، ولا يقفز بأبناء الأمة إلى الأمام، قد يشغل الساحة الأدبية زمناً، ولكنه يظل في التقويم الفني معزولاً عن تراث الأمة، غريباً عن روحها، بعيداً عن اهتمامات الإنسان فيها، لا يعبر عن تصوره للوجود، ولا فطرته الأصيلة في الحياة، إنه يظل موجة تمر ثم تتلاشى. وليس تياراً له صفته ودوامه وأثره... لذلك لم يكن أضيع على الأمة من هذه الموجات الأدبية، التي تشغل الناس بالسفاسف، ثم تمضي دون أن تخلف بناءً أو أثراً.

ونقدم نموذجاً لظاهرة الأصالة المعبرة عن شخصية الإنسان ومثله صاحب ديوان «الأرض المباركة» يجلو لنا آفاق فلسطين المباركة والاتجاه الأصيل في معالجة قضيتها، مبتعثاً في نفوسنا شخصية الفاتح الإسلامي والإنسان الذي كان يرود الحياة:

«أرض مباركة، لم تكن بركتها في حجارة أو طين، في نبات أو طير، في مروج أو زهور، وإن كانت هذه كلها طيبة، ولكنها بركة عقيدة وجهاد، بركة رسالة سماوية ونبوة، بركة تاريخ طويل يرسمه وحي السماء لتمضي معه جنود الحق في صراع طويل مع الباطل»[2].

وعلى هذا الطريق من المعالجة الأصيلة يتقدم الإنسان المسلم في

---

(1) النزعة الرومانتيكية والواقعية في الأدب: ١٢٠، د. حلمي مرزوق.

(2) ديوان الأرض المباركة: من مقدمة الشاعر عدنان نحوي، بيروت.

شخص الشاعر ليناجي في لهفة وإيمان، المسجد الأقصى، رمز قداسة فلسطين، فيرسم طريق التحرير الأصيل للأقصى وما بورك حوله، من خلال رؤى الفتوح الإسلامية وذكريات وقائع الإسلام:

رُبا الأقصى طيوفُكِ ذكرياتٌ   خَشَعْتُ أمامها دمعاً هَتونا
نَداك يظلُّ للإسلام مغنىً   وعطرُكِ ظل نفحَ المؤمنينا
جمعتِ بسيِّدِ الرسُلِ الأماني   وَبالقرآنِ ذِكراً مُستبينا
إلهي.. أين أبنائي وقومي   ومن رفعُوا على شُرُفٍ حُصونا
مشاعلُها من الإيمان وَقْدٌ   أضاؤوا دونَها الدربَ الأمينا
سأنتظرُ الليالِيَ لا أُبالي   لألقى فيهمُ النصرَ المبينا
يظَلُّ صدىً من الإسراءِ عهداً   يحرِّك بينَ أضلعيَ الحَنينا[1]

هذا الإحساس بالذات المسلمة، وصدق التميّز والانتماء، عرفناه في تاريخنا الأدبي، يجلو لنا متانة الشخصية الإسلامية، واستعصاءها على التغريب.

فمن القديم يتهادى إلينا صوت نهارِ بنِ توسعة صوتاً صادقاً صريحاً في انتماء الإنسان للإسلام رابطة وفكرة، ونبذ التفاخر الجاهلي بالأنساب.

دعيُّ القومِ يَنْصرُ مُدّعِيهِ   فيلحقُه بذي الحَسَبِ الصميمِ
أبي الإسلامُ لا أبَ لي سواه   إذا افتخروا بقيسٍ أو تميم[2]

ومن المعاصر تتعاقب النماذج، فنبدأ بالواقعة القصصية التاريخية التالية التي تروي لنا كيف تبتعث الأصالة شخصية الإنسان المسلم من جديد؟ تركستان بلد إسلامي حمل علماؤه رايات الحضارة الإسلامية زمناً، قاوم في العصر الحديث الغزاة الصينيين والروس لفترة طويلة من الزمن، برز خلالها بطولات نادرة من لون بطولات الأفغانيين اليوم، حارب هذا

---

(١) موكب النور: ٣٢، ٣٧ ـ ٣٨.

(٢) الشعر والشعراء: لابن قتيبة تحقيق أحمد شاكر، القاهرة ١٣٦٦ هـ حـ ١/٥٣٧.

الشعب الأعزل دولتين كبريين مدججتين بالأسلحة والعتاد، وقبل أن يُسدَل الستار على هذه البطولات التي أخمدها التآمر العالمي، بزغ نجم قائد تركستاني هو «عثمان باتور» قاد عملية بارعة نحو (أكتاي) فزحفت حشود إسلامية ضخمة فاحتلتها وطردت الروس، يومها ابتسم منصور درغا (جندي بارز في القصة) وقال: هذا حظ أرملتي الحسن، أوشكت أن تترمل مرتين، ثم يحدثنا عن هذا اليوم المشهود:

«ودخلنا المدينة.... وخرج الرجال بالهتافات المدوّية والأطفال بالأناشيد الحماسية، كلما حققنا شيئاً من النصر يظهر وجه بلادنا الحقيقي، تغمره الفرحة، وتضيء المآذنُ وينطلق منها التكبيرُ والتسبيح لله، وأشعر أن آباءنا الأقدمين... كأنهم يلبسون عمائمهم ويقفون على مشارف الطرق يحيون جهادنا ويرحبون بمقدمنا.. أشعر أن المجد القديم كله يبعث من جديد، فيمتلىء قلبي بالثقة، وتفيض روحي بالأمل»[1].

وأما الشعراء فيتعاقبون على هذا الميدان وينوِّعون فيه القول فيبدو من خلال أحاسيسهم وتجاربهم قضية الساعة التي تشغل ألبابهم ونفوسهم. يعرض الشاعر د. عبد الرحمن بارود لقضية انتماء الإنسان للإيمان والإسلام فيطالعنا بهذه الصورة المتميزة:

دارُنا روضةٌ من الخُلْدِ فيها
يعرفُ الآدميُّ معنى الوجودِ
دارُنا أولياؤها الملأُ الأعـ
ـلى وفودٌ تجِلُّ إثر وفودِ
أسرةٌ، الكائناتُ فيها قلوبٌ
قد أضاءتْ بالحبِّ والتوحيدِ[2]

---

(١) ليالي تركستان: نجيب الكيلاني، بيروت، طبعة ثانية ١٣٩٤/١٩٧٤ ص ١٤٧.
(٢) شعراء الدعوة الإسلامية في العصر الحديث: أحمد عبد اللطيف الجدع وحسني أدهم جرار بيروت ١٣٩٨/١٩٧٨، ١/١٢٣.

ويجد شريف قاسم في ازدلاف المسلمين حول البيت الحرام، منطلق الرسالة والنبوة والوحي، ما يبعث على الثقة بمستقبل الإنسان المسلم والأمة المسلمة وأصالتها فيقول:

بمكةَ لم يطفَأْ سِراجُ هدايةٍ ... وذي أممٌ بالبيت تسعَى وترمقُ
وإيماءةُ الوحي الأمين تلفُّتٌ ... على المسلم اللهفانِ يحنو ويغدق
وفي الدربِ آثار النبوةِ نفحةٌ ... تهل على المغنى الوريف وتُنشَقُ[1]

ويدعم الشاعر ثقته بنظرة مستقبلية يرى من خلالها بعثاً لإنساننا المسلم من جديد، تتملاه العين ويحياه الفؤاد:

لا تقُلْ غابَ فجرُنا الربّاني ... في دياجي الخطوب والأشجانِ
وانطَفَتْ شُعلةُ الجهادِ وغامتْ ... في سمانا عزائمُ الإيمانِ
أو كبا الفارسُ العنيدُ مدمّىً ... وتخلّى عن حَوْمةِ الميْدانِ
من فِجاج الصحراءِ أُصغِي لصـ ... ـوتٍ أزَليٍّ يموجُ في وُجداني
عربداتِ الهوانِ ذوبى فهذي ... صَرخاتُ انبعاثِنا الربّاني
دفقةُ البيدِ موجةٌ من غيوبٍ ... حملتْها كتائبُ الرحمنِ
وهي اليومَ في ضمائرنا الحـ ... ـرّى نشيدٌ يثير رُوح المعاني
هو وهْجُ الأقدارِ في الأضلع الظمـ ... ـأى وروحُ الفداءِ والعُنفوانِ
ونداءُ الخلودِ من جنة الخلـ ... ـدِ وصوتُ البطولةِ الرنانِ[2]

ويمضي على هذا النحو من الشعراء كثيرون، نذكر منهم الشاعر الجزائري محمد بلقاسم خمار[3]، والشاعر الأردني يوسف العظم[4]، وأما

---

(١) مجلة الدعوة (السعودية): ع/٧٤٤ عام ١٤٠٠ ص ٣٨.

(٢) المجتمع (الكويتية) ع: ٥٦٧ عام ١٩٨٢/١٤٠٢ قصيدة: من فجاج الصحراء، شريف قاسم ص ٥٧.

(٣) انظر ديوان ظلال وأصداء: قصيدة «مولد المجد»، وظلال وأصداء محمد بلقاسم خمار: الجزائر.

(٤) انظر ديوان في رحاب الأقصى: قصيدة «مهلاً... يا رفيق» يوسف العظم، بيروت، ط أولى ١٣٩٠/١٩٧٠.

الشاعر عدنان نحوي فيروي كفاح الأدب الإسلامي لبعث الوجود الإسلامي في المجتمع والحياة، من خلال قصيدته «التائهون» التي يرسم فيها للإنسان الذي عصفت بشخصيته الأعاصير، كيف يستعيد شخصيته الأصيلة؟ وكيف يبني بها وجودَه الحق بالعمل والفداء:

قمْ إلى المجد لا تدَعْ هذه الدارَ على الذلِّ؟ فما هواها القعودُ
لم تَزلْ في رُباكَ مئذنةُ الحـ ـقِّ وما زال في ربوعِكَ صيدُ
والميادينُ لم تَزَلْ تهبُ العمْـ ـرَ، شهيدٌ يمضي إليه شهيدُ
قمْ وعانقْ على انتفاضتِها المجـ ـدَ يعانِقْ جراحَك التضميدُ
نفحاتُ السماء أنداءُ وَحْيٍ فجَّرَتْها على الشفاهِ كُبودُ[1]

هذه بعض ملامح أصالتنا، إحساس بالذات، وصراع للدخيل، وإفادة من معطيات العصر بعد صهرها بشخصيتنا المسلمة التي تظل أصيلة مهما أخذتْ، لأنها تصدر عن تصور أصيل يذيب كل شيء برحابته وسعته وشموله.

(١) موكب النور: ٢٥.

الإنسان في الأدب الإسلامي

عرضه وتلخيص

بحث أدبي يهدف إلى تأصيل الأدب الإسلامي، يستمد خلفيته الفكرية من الفكر الإسلامي وقيمه، ويحقق ذات الشخصية المسلمة، بتأكيد وجودها واستقلالها الفكري والإرادي، والأدب الإسلامي أدب متميز بطابعه، يعبِّر عن التصور الإسلامي للوجود، ورسالة الإسلام في الحياة..

ينطلق البحث من زاوية الإنسان في الأدب الإسلامي، لأن الإنسان موضوع النتاج الأدبي، ومنطلق إبداعه، لذا كانت موضوعاته واسعةً سعة عالم الإنسان في الإسلام.. ولما كان البحث جديداً على النفوس، يوقظ فيها أصول تفكيرها. واستقلال شخصيتها، كان من متطلبات البحث أن يدرك الدارسون دور الأدب الإسلامي في تلبية الحاجة إلى استقلال الشخصية المسلمة وما يتهددها من أخطار..

يعرض الباب الأول لأخطار الغزو الأجنبي على حياتنا الفكرية وتصوراتنا الأدبية، وما يتهددنا من ضياع معالم شخصيتنا، وذوبان وجودنا الأصيل، ولا سيما حين يميل بعض أدبائنا المعاصرين إلى اتخاذ الآداب الأوربية، ومذاهبها الأدبية نموذجاً يحتذى بما فيها من عقلية الأجنبي وذوقه الغربيين على عقيدتنا وذوقنا. ومما يزيد ذلك خطورة أن يتبنى بعضهم آراء أوربا في الهجوم على التراث والحضارة، داعياً إلى فصل الدين عن الحياة، والثقافة، ولقد عرض البحث لذلك بما يوضح حاجتنا لإدراك هذا

الخطر الداهم، متمثلاً في متابعة بعض أدبائنا المعاصرين خط الفلسفات والآداب الأوربية في عدائهم ماضينا وتراثنا ودينـنا، وقد بدا ذلك في استخدامهم غير اللائق والخالي من الاحترام لفظ الإلّه، والنبوة، والخلافة، وفي تبنيهم النزعة الأوربية في إقصاء الدين والاخلاق عن الأدب، مع أن الدين والأخلاق مقوِّمان لحياتنا، يميِّزان إنسانيتنا، وإن في حجبهما عن الأدب خسارة كبرى.

ومن أخطار هذا الغزو التي جلاها البحث صدور بعض أدبائنا عن نظرات غربية، بعيدة عن الأخلاق والعفة في علاقة الرجل بالمرأة، وتبنيهم نظرات الكشف والعري، وتضخيم جانب الجنس على حساب العواطف الأخرى، متابعين بعض فلاسفة أوربا وشعراء الجنس فيها، مخالفين في ذلك قيمنا وأعرافنا وطبيعة أمتنا. ومن أخطار هذا الغزو توظيف بعض شعرائنا المعاصرين الرمز والأسطورة في أدبهم منتهجين طريق الأدب الأوروبي الذي يحتفل بالرموز والأساطير، فاستخدموا في شعرهم رموزاً مخالفة لعقيدتنا الإسلامية في تصورهم لشخصية السيد المسيح، وما يتصل بالصلب والصليب وسواهما من رموز نصرانية، كما استخدموا في شعرهم الأساطير التي تعيد إلى الأذهان العقائد الوثنية القديمة التي تؤمن بإلّه يموت في الجدب ويَبعث برجعته للحياة الخصب، والتي انتقلت فيما بعد للعقائد النصرانية، فاتخذ منها شعراؤنا رموزاً للابتعاث من خلال الأوهام الأسطورية في التغلب على الموت، استغرقت مشاعرهم وملأتها بالنظرات الواهمة والعقائد الضالة كالمجوسية والهندوكية. وكان من الألوان التغريبية، أخيراً، ما دخل شعرهم من نزعات الصوفية الهندوكية الزاعمة القدرة على الكشف والإدراك المباشر؛ فخلّفت نظرات مفسدة للعقيدة، من مثل حلول الخالق ـ سبحانه ـ في الطبيعة والبشر (الحلولية)، واتحاد الإنسان بالخالق (وحدة الوجود)، والتقمص وهو عودة الروح إلى جسم آخر ابتغاء الخلاص، ولا

نعلم فائدة من هذه النزعات الوثنية لأدبنا اللهم، إلاّ أن تجلب له ضياعاً واختلاطاً، وبُعداً عن العقيدة التي نتميز بها..

وبعد جلاء هذه الأخطار المحدقة، تتضح للدارس ضرورة هذا البحث الذي يرسي الأصالة في أدبنا، ويعيد إلينا الثقة بأدبنا وشخصيتنا، ويجنبنا النزعات التغريبية المخرِّبة، لأمتنا وتراثنا، وتُرسَم فيما يأتي خطوط البحث مجملة، بعد تقديم متطلباته، فيلقى الضوء على الإنسان في التصور الإسلامي بوصفه الأساس الفكري للإنسان في الأدب الإسلامي، وتُعرض وجهة النظر الإسلامية في خلق الإنسان من قبضة من طين الأرض ونفخة من روح الله. على أن قبضة الطين ترمز إلى رغائب الأرض وضروراتها، ونفخة الروح ترمز إلى الإشراق والوعي والتسامي، وأن جوهر الإنسان المكون من مادة وروح، لا ينفصل فيه جزء عن جزء، وإنما هو وحدة متكاملة، وبهذا يلتقي نشاط الجسم والروح دون انفصال، ويتجلى ارتقاء الإنسان في التصور الإسلامي في توازن المادة والروح بحيث لا يطغى عنصر على آخر، مع الاستجابة إلى موحيات الإسلام بالصعود.

وفي نظرة مقارنة، يعرض البحث للنظرات الجاهلية في خلق الإنسان لدى الهندوكية والنصرانية، والداروينية، والطبيعية، والفرويدية، والماركسية، والوجودية، موضحاً انحراف نظراتها من زاوية التصور الإسلامي. ثم يفضي من ذلك إلى الحديث عن النفس الإنسانية في التصور الإسلامي ويخص بالذكر الفطرة الإنسانية التي يولد عليها الإنسان صافي النفس نقياً، ومن ثم يتولى النظام الإلّهي صقل فطرته والارتقاء بها والمحافظة عليها، مع العلم أن الفطرة البشرية ـ وهي التي تتوازن فيها المادة والروح في الإنسان ـ تمثّل الانسجام مع نظام الكون، وأن الانحراف إلى جانب المادة أو إلى جانب الروح في النفس الإنسانية يخالف نظام الفطرة

ونظام الكون معاً، وقد وقعت الأنظمة الجاهلية في العالم اليوم في هذا الانحراف، فكان من عواقب فساد فطرة الإنسان العـري الحيواني، وسيطرة المادة، واغتيالها العقل والذوق الإنساني.

ثم ينتهي من ذلك إلى الحديث عن حياة الإنسان الأسرية، فيعرض إلى الميل الفطري بين الجنسين وعمق هذا الميل الذي تتضح غايته في حفظ النوع البشري وأداء مهمة الخلافة في الأرض، وقد ضبط التصور الإسلامي هذا الميل بالخلق والعفة، ووجّهه إلى غايته بالزواج والنسل، كما حافظ على هذا الدافع الفطري دون إثارة، فألزم بنظافة العلاقات والصلات، ونظافة المعروضات والمرئيات، إلى جانب الاعتصام بتقوى الله ورقابته، وتصريف هذا الميل في طريقه المأمون النظيف بالزواج والأسرة. ونظام الأسرة في الإسلام نظام فطري يلبي رغبة الإنسان، ذكراً وأنثى. في أن يكون للإنسان زوج وولد، لذارعى الإسلام هذا النظام الفطري، فأوصى بحسن اختيار الزوج أو الزوجة على أساس من الدين والخلق، كما طالب بحسن التعامل بين الزوجين، وبحسن رعاية الأبناء وتربيتهم، من خلال أنظمة وتوجيهات وإيحاءات ثم عرض أمثلة لحياة الفوضى الخارجة عن نظام الأسرة، وخطورة اتجاه الانحراف في الجنس والإباحة عند بعض أدبائنا المعاصرين، متابعَةً منهم للنظرات الأوربية، وانتهى إلى أن الفوضى في الجنس طريق إلى تهديم الحضارات شأن عدد من دول العالم في القديم وفي الحديث.

وأما الموقف الثاني في الأدب الإسلامي فهو غاية الوجود الإنساني، ويمتاز الأدب الإسلامي بعرض غاية الوجود في الحياة واضحة مكتملة، فهي العبودية الشاملة لله، أو استخلاف الإنسان عنه في الأرض.. يعرض الأدب الإسلامي لهذا المعنى الشامل للعبودية في وقت غاب عن كثير من الناس تصورُه، واكتفوا بعبادة الشعائر، ظناً منهم أنهـا كـل ما يطلب منهم، لذا

يجلو لنا الأدب الإسلامي في هذا الموقف لونين من العبادة لله: العبادة الكبرى وهي الاستخلاف، والعبادة الصغرى وهي الشعائر، ولعل الله قد جعل من العبادة الصغرى إعداداً دائماً لتلقّي مهام الاستخلاف أو أمانة الله التي وكلها إلى الإنسان في الأرض. وفي هذا يعرض الأدب الإسلامي إلى تأهيل الإنسان لأمانة الاستخلاف، بما أودعَه الله فيه من فطرة صافية مهيأة لتلقي الإيمان وما يلزمه من خلُق وعمل صالح، وما منَحَه إياه من منزلة في هذا الكون، وما أناط به من دور تكريماً له وصوناً لإنسانيته، وكفالةً لمعيشته، وارتقاءً بنظام حياته.. وبعد هذا التأهيل يرصد الأدب الإسلامي دور الإنسان في هذه الحياة، من خلال مهمة الاستخلاف متمثلةً في تحقيق الإنسان المسلم استظلالَ العالم بظل الإسلام وقيمه، وطريق ذلك في تناول الأدب الإسلامي وإبداع أدبائه يتجلى في نشر الإسلام في أقطار المعمورة بالدعوة إلى الله والجهاد في سبيله، كما يتجلى في تحرير الإنسان في أقطار البشرية كافة من الطغيان والعدوان لتسلَمَ للإنسان أنّى كان حريتُه وكرامتُه ومقوّماتُ إنسانيته التي وهبه الله إياها.

ثم نأتي إلى الشطر الثاني من مهمة الاستخلاف أو غاية الوجود الإنساني في الأدب الإسلامي كما يتجلّى في عمران الأرض، فلقد أعان الله الإنسان على مهمته العمرانية، بتطويع الكون وتهيئته لاستثمار الإنسان، وهيّأ البواعث للانطلاق والحركة، فكان من لوازم هذه المهمة الأخذ بأسباب العلم والمعرفة، وتوجيه المخترعات لخير البشرية، ووقايتها من الدمار الجاهلي، ولعل ما يميّز عمران الأرض في الأدب الإسلامي أنه مرتبط بغاية الحياة ومنهجها، وليس فلتة عابرة منقطعة عن نظام الوجود. وفي ذلك من الآفاق ما يطلق الأدب في أوسع رحاب.

ثم نمضي مع البحث إلى مواقف الإنسان في الحياة، فيطالعنا موقف الإنسان من الدنيا والآخرة، التي يقدم فيها الأدب الإسلامي توازناً بين الحياة

الباقية والحياة المعاشة في الدنيا، فيمنح الإنسان هدفاً وقيمة مستقبلية للحياة، ويربط بين الدنيا والآخرة بحيث تصبحان حياة واحدة، وما الموت إلّا مرحلة انتقال، وبذلك تكون الدنيا دار عمل وتذخير للآخرة، وفي هذا سعة لرؤيا الأديب المسلم إذ تتسع وتمتد لتشمل الدارين معاً والزمن كله.

ثم نأتي إلى موقف الإنسان من الخير والشر، الموضوع الذي اضطربت نظرة الناس إليه قديماً وحديثاً، فإذا بنظرة الأدب الإسلامي تجلو الموقف: إن الخير في الفطرة البشرية أصيل تذكيه القيم الإسلامية وتنمّيه، والشر، وأصله الشيطان، مناط اختبار وابتلاء للإنسان، إن نجح في الاختبار نال الجنة والدرجات العلا. وقد حفّ الأدب الإسلامي الإنسان بالضوابط والحوافز الكفيلة بتسديد خطاه، فألهم القلب البشري مراقبة الله والخشية من عذابه، ونفث فيه الحرص على أداء الأمانة من خلال منهج الله في الأرض، كما زوّده بمنهج متكامل من القيم يكوِّن في الأدب الإسلامي عالم الخير. ثم يطالعنا موقف الإنسان من الجبر والاختيار، فنرى أن هناك نظرات ترى جبرية الإرادة في الإنسان وعدم مسؤوليته، وقد تابع هذا الاتجاه بعض أدبائنا المعاصرين في تهوين السقوط وتسويغه. كما نرى أن هناك نظرات تتطرف في تضخيم إرادة الإنسان، وقطعه عن خالقه مدبّر شؤون الكون، وقد تسببت في الضياع واللاجدوى. أما الأدب الإسلامي فيوازي بين الجبر والاختيار في إرادة الإنسان، فالإنسان يختار بملء إرادته ومسؤوليته، ولكن اختياره ضمن مشيئة الله خالق كل شيء ومدبّر كل شيء، وبذا كانت نظرة الأدب الإسلامي إلى القدر نظرة تعكس الطمأنينة والثقة والأمل في نفس الإنسان، وتدفعه إلى العمل بتفاؤل ومسؤولية وإيجابية.

ثم نأتي بعد ذلك إلى موقف الإنسان الجمالي، وهو يصدر عن نظرة الأدب الإسلامي الجمالية التي ترى الجمال أصلاً في إبداع هذا الكون، فضلاً عن جمال المعاني والمثل والسلوك، كما تتصف بالاتساع والشمول،

فتجمع في نظرتها الجمالية بين جمال المادة والروح، ومن ثم تعرض الحياة كلها من خلال المعايير الجمالية سواء بالسلب أو الإيجاب، فتعرض لجمال القيم والمشاعر بما فيها من حب وخير وطلاقة وارتفاع. وتعرض للاختلالات الإنسانية والنفسية والخلقية، على أنها قبح ينافي حقيقة الجمال الأصيل في الوجود، وبهذا الاتساع والشمول تنقل الإنسان من حدود الحس القريبة والقيم المحدودة إلى عالم أوسع ومجالات شعورية أعلى، ومن ثم نعرض لموقف الإنسان الوجداني فنجد للعواطف البشرية قيمة كبرى في الأدب الإسلامي، ذات اتساع وشمول، تضم المواجد كلها، نازعة إلى التسامي والضبط، ونجد في ذروتها الحب الإلٓهي ذا الارتقاءات العليا، وعواطف الأليفين، والمشاعر الأسرية الأبوية والحب الإنساني لأبناء البشرية كما نجد نماذج من حب المثُل والجهاد، وما تولِّد هذه المواجد الواسعة كلها من طاقات.

وختاماً لمواقف الإنسان في الأدب الإسلامي يعرض البحث لدور العقيدة في حياة الإنسان، فنلفي أن الأدب الإسلامي أدب عقيدة، عنها يصدر في نتاجه. ومنها يأخذ طابعه. فالعقيدة في الأدب الإسلامي تحقق ذات الإنسان المكلف بالأمانة، وتجعله ذا كرامة واعتزاز، منتصراً بقيمه ومثله العقدية على ما انتهج الناس من أفكار وأوضاع بعيدة عن الإيمان. وهي تملك الصنع والأثر، فتنقّي نفس المؤمن بالتقوى، وتبتعث فيه طاقات كبرى. وتسكب في قلبه الثقة والطمأنينة بنصر الله وعونه، وترتفع برؤيا المؤمن، فإذا به يتذوق الحياة بحس خاص، ويرى الوجود بنظرة متميزة، كما تربط الإنسان بعالم كبير من الإخاء والمثل، وبرابطة إيمانية تضم المسلمين في أقطار الأرض، وتوجههم وجهة واحدة، وإلى قبلة واحدة.

هذا طرف من الآفاق الإنسانية التي يعكسها الأدب الإسلامي عن الإنسان، تأليقاً لإنسانيته، وتأكيداً لدوره المناط به في الوجود. الذي عرفه

بـه العالم الإنسـاني هدى ورحمـة وإحسانـاً. ودور الإنسـان في الأدب الإسلامي واسع رحيب، يلبي تطلعات الإنسان في الحياة المعاصرة إلى الحياة الكريمة، ويعيد الثقة والاطمئنان إلى النفوس، وذلك بمـا يحقق للإنسان المعاصر من قيمة كبرى تمنحه معنى لوجوده في هذه الحيـاة، متمثلاً في انتمائه لفكرة ربانية تبوئه مكانة ودوراً ومسؤولية، ونهوضِه بمهمة الاستخلاف عن الله في الأرض، بما يرتفع بمكانته، ويحميه من سأم الحياة والضيـق بهـا، كما يحميه من غربته مع نفسه ومجتمعه وعصره، ويجعل للحياة مذاقاً وطعماً، تستحق أن يعيش الإنسان لها.

الأدب الإسلامي خط أدبي متميز، ولـون فني يستمد من الإسلام تصوره للوجود، ومن مزاولة الحياة الإسلامية في ظل الغاية العليا، عوالمَه وملهمـاته، ومن تـراث الأمة الأدبي والفكـري مُثُلَه وصوره، ويفيـد من المعطيات العالمية أفكاراً وفناً، مما ينسجم مع تصور الإسلام وخط سيره، ويصنع على غير مثال أدبه وفنه. ولقد رأينا من خلال منهج بحثنا: «الإنسان في الأدب الإسلامي» أن الأدب الإسلامي طريق جديد للإبداع الفني من خلال التصور الإسلامي، يرعى القيم الإنسانية على أتم ما يراه أدب أو فكر، له من آفاقه الإنسانية الشاملة الواسعة، المتجددة الأثر في النفوس مجالات خصبة يمكن أن تجتذب الأدباء في كل لون وفن، إنه أدب عربي يستمد مضامينه من التصور الإسلامي للوجود في النظر إلى قضايا الحياة والكون والإنسان، ولكنه يجاوز المحاور الإقليمية ليشمل المسلمين في أقطارهم كافة، والعالم بأسره.

هذه موضوعات البحث وآفاقه تبشر بعالم أدبي واسع، جديد، سيكون له دوره الإنساني ورسالته الكبرى، وهذا ما يجعله أدباً مستقبلياً، نرنو في كل يوم إلى ما يبدعه من الآفاق البكر التي ذخّرها له الإسلام في تصوره الشامل الواسع للوجود، كما نرنو إلى مواقفه الأصيلة من الحياة المعاصرة،

تعالج قضايا العالم بنظرتها المتميزة، لتقدم رؤى الخير والطمأنينة من خلال رسالة الإسلام ومهمة الإنسان في الوجود.

إنه أدب يؤثر الأصالة كما يؤثر الإبداع الفني، لذا كان له طريقه المتميز، وتقويمه المتميز.

مسرحية البعد الخامس والعالم الثاني

المسرح لون من الفن المرئي، والفعل الدرامي، يعكس منظور مؤلف المسرحية للحياة وأحداثها، واشتباك علائقها، كما يعرض لتصور الإنسان للحياة والوجود من خلال شخوص المسرحية وأحداثها والحوار الدائر فيها الذي يكشف عن الآراء والتطلعات، والعلائق، والرؤى الإنسانية...

وقد حاز المسرح - في الجيل الماضي - قبل ازدهار (التلفاز) في عالمنا العربي والإسلامي من الأهمية ما جعله يتصدر الوسائل الفنية في التعبير عن قضايا الحياة المختلفة، ولا يزال للمسرح - مع ذلك - دوره ومكانه، ورواده، بوصفه «جماع الفنون كلها: الكلمة والحركة والموسيقى والصورة والتعبير والأضواء والظلال»[1]. ولا سيما بعد أن ارتقت وسائله بتقدم المخترعات الحديثة وتقنياتها.

ولا عجب بعد هذا أن نجد بعض الدارسين المخلصين يتطلعون إلى ولادة: «المسرح الإسلامي» الذي يغطّي ما يثور في الحياة المعاصرة من قضايا الإنسان والحياة من وجهة النظر الإسلامية، ويحسن التعبير عنها، يعبّر عن هذه الرغبة الناقد الإسلامي الدكتور عماد الدين خليل بقوله:

«أفليس من حق الفنان المسلم أن يدلي بدلوه في هذا الميدان المؤثر

(١) في النقد الإسلامي المعاصر د. عماد الدين خليل، بيروت ١٣٩٢ - ١٩٧٢، ص: ١٧٧.

الخطير؟ أليس من حقه أن يرتاد الآفاق الجديدة الرحبة التي يطرحها هذا الفن، ويعرض على قومه وأمته صوراً تعتمد الحركة والإيماءة، يقتطعها من واقعها المرير. . صوراً تحيل الهمسة إلى صرخة، والكلمة إلى انطلاقة، والسكون إلى مزيج من التشابك الدائم بين الأضواء والظلال؟ أليس من حق الفنان المسلم أن يعتمد كل ما يقدمه له هذا الفن من إمكانات، كي يجسّد أمام الناس الأفكار التي تدور في خاطره، والعواطف التي تعتمل في فؤاده. . . والرؤى التي تناغيه من بعيد. . يجسّدها على الخشبة، وجهاً لوجه أمام الحشود التي تهزها الحركة والإيماءة والتعبير والصرخة. . »[1].

إزاء هذه التطلعات الملحّة استجابت الأقلام المسلمة فسكبت نتاجها في حياض الأدب الإسلامي المعاصر الذي ازدهر في العقود الأخيرة لهذا القرن، فألفينا عدداً من المسرحيات الإسلامية سبقت المسرح الإسلامي التقني، وهذا من طبيعة الأشياء، فالمسرح الإسلامي أجدر أن يبدأ برصيد وافٍ من المسرحيات الإسلامية.

وتعَدّ مسرحية «البعد الخامس» لأحمد رائف من أوفر المسرحيات المعاصرة، تمثُّلاً للتصور الإسلامي، ورعاية للشروط الفنية، فضلاً عن تناولها موضوعاً راقياً، سابقاً في مضمار عالمنا الحضاري المعاصر، يبوّئها أن تكون إحدى مسرحيات العصر، تمثّل لكفاءة المسرحية الإسلامية إذا حُبِيتْ بمزيد من المهارات الفنية.

نشرع باسم المسرحية «البعد الخامس»، ماذا يريد الكاتب به؟ وإلامَ يرمي من هذه التسمية؟.

إن أحمد رائف يريد بالبعد الخامس (البعد غير المحسوس الذي يضفي مدلولاً صحيحاً على واقع الموجودات)، ويرى فيه الحل لمعضلات

---

(١) في النقد الإسلامي المعاصر، ص: ١٧٩ ـ ١٨٠.

الحياة المعاصرة، يجلو لنا ذلك من خلال الحوار التالي في المسرحية..

«رينهارت : .. من الضروري أن نبصر أخطاءنا جيداً، وخاصة هذه الأخطاء التي لا يمكن إصلاحها أبداً.

ميرهارد : الزمن كفيل بإصلاح كل شيء.

رينهارت : الزمن؟ هل قلت الزمن؟

ميرهارد : نعم...

رينهارت : لا يوجد شيء بهذا الاسم.. مجرد افتراض لتعليل الحوادث وتفسير الظواهر، وفي واقع الأمر لا وجود له بالمرّة.. لقد أخطأ دكتور (ألبرت أينشتاين) في ذلك التعريف للبعد الرابع الذي تصوره للوجود.

ميرهارد : (مندهشاً) كأنه لا وجود للزمن؟ هذا شيء جديد لم أسمع به.

رينهارت : ليس هكذا بالضبط... ولكن هو تعريف لبعض الحلقات المجهولة في شبكة الوجود الغريبة.. حتى نستطيع أن ندرك الجزئيات (بسحرية)، وحتى يكون هناك مادة للشعراء والأدباء والفنانين.. وأظن أن هذه الأبعاد الأربعة ليست كافية لقياس الأشياء قياساً صحيحاً، منضبطاً، فهناك بُعد آخر غير محسوس تنضبط به الأشياء، وتقوَّم تقويماً صحيحاً حقيقياً.

ميرهارد : أهو بعد ميتافيزيقي إذن؟

رينهارت : أريد فقط أن أقول إنه بُعد غير مادي.. هو انبعاث من داخل الإنسان يضفي مدلولاً صحيحاً على واقع الموجودات»[1].

ونجد بعد هذا أن أحداث المسرحية وقيمها تنطلق من خلال إبراز هذا البُعد غير المادي الذي يتم به قياس الأشياء، وضبطها، وتقويمها..

---

(١) البعد الخامس (مسرحية)، أحمد رائف، بيروت ١٣٩٢ ـ ١٩٧٢ ص: ٦٠ ـ ٦١.

وتدور أحداث المسرحية ومواقفها حول الأزمة البشرية التي كان يعانيها العالم المعاصر بعد الحرب العالمية الثانية التي أفرزت سباق التسلح بين الدولتين الكبريين، كما أفرزت أنظمة عاجزة أخفقت في حل معضلات البشرية، فهي بين نظُم تستعبد الإنسان وتذِله وتقهره، ونظم تقوده إلى حرية طائشة تدمره، وهكذا يصل العالم البشري ـ حين يبتعد عن العقيدة ـ إلى طريق مسدود. من هنا كان البحث عن الخلاص، عن نظام يلبي حاجات البشرية ويحل معضلاتها، فكانت الهجرة إلى المريخ، حيث النظام الإلّهي، يغسل النفوس من أدرانها، ويتجه بها في فطرية صافية إلى الله من خلال أرقى نظام للبشر وأهداه. .

وفي لحمة المسرحية، وفي ثنايا تشابك أحداثها يطرح المؤلف عدداً من القضايا الإنسانية. .

١ ـ فقدان التوازن على الأرض بفعل الجاهليات المعاصرة:

لقد خلق الله الإنسان، وكرّمه، وزوّده بالعقل والإرادة، وأهّله بالفطرة والوحي مستخلفاً عنه في الأرض، على طريق شرعه ونظامه. ولكنّ البشر المعاصر في كثير من أقطار العالم لم يسِر على ناموس الخالق، وابتعد عن شرعه وطريقه، ففقد ـ بجاهليته هذه ـ حلقة التوازن، وجحد غاية الحياة، بما أورث الصراع والحروب. .

يعرض المؤلف لهذه الظاهرة من فقدان التوازن في الموقف الذي كان يعانيه «رينهارت» عالم الذرة السويدي، وهو في ذروة انفعاله المأساوي، فقد سخّره «هتلر» لمآربه مرغماً، فارتكب كثيراً من المجازر في الحرب العالمية الثانية، فاستغلت الاستخبارات الأمريكية موقفه الحرج، فأخذت تساومه على العمل في مراكزها الذرية، وإلا فستقدمه للمحاكمة بوصفه مجرم حرب متعاون مع النازية. ويحار «رينهارت» في ظل هذا الضغط كيف يتصرف،

ولكن كابوس المجازر التي أرغِم على الاشتراك فيها في الحرب الثانية لا يزال يلاحقه، ودخان الحرائق التي أضرم فيها البشر ـ وكان من ضحايها زوجه وطفلاه ـ لا يزال يتلامح له رهيباً مخيفاً. . وإنه ليتخيل الآن مأساة البشرية التي يمكن أن تتكرر من خلال الحرب الذرية القادمة. فيكاد يُصعق ألماً، وهو يجتر المأساة التي تجرّعها يوماً، ويؤمر اليوم أن يزاولها من جديد، ويتلامح له وجه زوجته وطفليه اللذين قضيا في هذه المجزرة. .

«رينهارت : لقد حلت لعنة «هتلر» الأبدية على رأسي. . أكاد أجنّ. . ذلك الوجه الذي يطل عليّ من سدف الغيب بنظراته المتشككة اللائمة. . لقد كانت غارقة في دراسة الآداب والفنون. . وإذا أتى بُعد من أبعاد المجزرة التي ما زالت تلطخ جبيني بالعار. . كانت تصمت وترسل نظراتها المليئة باللوم والإدانة. . أين ذهب هذا الوجه؟. . لم يؤخذ رأيي في هذه الحرب ولم أوافق عليها. . ولكن. . كنت نذلاً. . كنت جباناً. . أحببت الحياة أكثر من الشرف ومن النبل، ومن سائر القيم العالية التي تنضّر وجه الإنسان.

ميرهارد : (مخففاً عنه واضعاً يده على كتفه) يا عزيزي فريدريك لا داعي لهذه الذكريات.

رينهارت : (مستمراً كأنما يحدث نفسه) الفوهرر يريد أن نفرغ من إعداد وقود للصواريخ. . هناك قرابين جديدة يجب أن تقدّم. . . ويبدأ القداس الأحمر، . . . وتتحول المدن إلى أنقاض. . سترتفع نسبة اليتامى والأرامل إلى ثمانين في المائة. كلا. . إلى تسعين في المائة. . لا، ما الذي يوقف الدمار والهلاك؟ لا شيء. . ستكون نسبة اليتامى والأرامل مائة في المائة. . .

ليديا : (في قلق) هوّن عليك يا خالي.. لا ضـرورة لكل هـذا الاستطراد.

رينهارت : (غير ملتفت إليها) لن تكون هناك حياة لنقيس فيها نسبة اليتامى والأرامل، ستأتي النيران على كل شيء.. سيسبح برج (لندن) في لظى من النيران المتأججة الراقصة.. من الذي صنع هذا؟ (يضحك في عصبية) إنه أنا.. عالم الطبيعة الذي ضلّ الطريق (تغشى وجهه كآبة شديدة) آه يا (فرانز) يا طفلي الحبيب.. لقد قلت لك إن اللعب بالمسدسات أمر ليس مستحباً.. وما ذنبي أنا؟ لم أمسِكْ لعبة في حياتي على الإطلاق.. ومع ذلك صنعوا مني قاتلاً يا (فرانز).. ولكن أين أنت؟ الدخان يصنع غشاوة سميكة على بصري.. النيران لم تُبقِ على شيء.. الصفير القاتل المخيف ثم صوت الانفجار.. وتتلاشى بسمتُك أيها الحبيب.. لست أنت فقط. ولكن (هيلجـا) أيضاً وكـذلك أحب مخلوق عرفته.. أمكما يا (فرانز).. إلى أين تذهبون جميعاً؟ ولماذا أبقى وحدي؟» (ص: ٥٧ ـ ٥٩).

إزاء هذه الأهوال التي أفقدت الأمل في حياة التوازن على الأرض، يجـد «رينهارت» أن لا حل إلا بمبارحة هذا العالـم الذي انتهى، فيصنع مركبة ويصعد بها وابنة أخيه وخطيبها إلى المريخ..

وتستقر مركبة الأرض على المريخ مع حلُم المؤلف في عالم جديد، حافل بالرقي والحب على أساس من هدى الله.. وعلى سطح المريخ حيث يملك أبطال المسرحية أن يفسروا أحداث الأرض.. بعيداً عن الضغوط والصراعات التي تغير الحقائق يجري الحوار فيما تسببه الحرب بين الشعوب من فقدان التوازن في طاقات الإنسان وتعثُّر رقيه الحقيقي على الأرض، بفعل

الجشع الجنوني إلى التَملك أو محـاولة السيـطرة على الأمم الضعيفة، واستلاب مواردها، وإذلال إنسانها. . .

«ميرهارد : في الواقع إن الحروب من أهم معالم كوكبنا الذي كنا نعيش فيه. . فلا يمكن أن ينقضي جيل واحد دون أن ينشب عدد من الحروب المحلية الصغيرة، ويقتتل العالم كله كل جيلين على الأكثر. . وقد تركنا في الأرض مثلاً قبل أن نأتي ألواناً كثيرة من القتال الوحشي في أماكن متفرقة. . . الحرب من العوامل الأساسية التي تحرك الإنسان على الأرض.

مينور : (ملك المريخ) ولكن من أجل أي شيء يقتتلون؟

ميرهارد : هناك أسباب كثيرة تفسر هذا القتال. . فهناك من يقول إن الثروة موزعة توزيعاً سيئاً على أمم العالم، وليس من السهل إعادة توزيعها أو التفاهم سلمياً في هذا الشأن. . وبعضهم يخيِّم على تفكيره فكرة السيطرة والتفوق والرغبة في بسط النفوذ على الأمم الصغيرة التي وضعتها الظروف في إطار التخلف، وثمة أمم واقعة تحت هذا النفوذ تريد أن تخرج من دائرته. . وهكذا حلقات مفرغة. .

مينور : ألا يوجد حكماء عندكم يبذلون جهداً لوقف هذه المذابح؟.

ميرهارد : لقد تعب المصلحون من بذل الجهود لإطفاء هذه النار المستعرة الأوار، كم كتِبت المقالات والكتب. . وأنشِـد الشعـر. . وترددت الأنـاشيـد. . . وقـامت المؤتمـرات، ورصِدت الجوائز. . وأنهك عقلاء الناس أنفسهم من أجل السلام. . وكل هذه الجهود ذهبت هباء. . .

أولاس : (نائب الملك) قد تكون موارد الأرض غير كافية لسكانها. . وهذا يوضع في الاعتبار عند البحث عن سبب الحروب.

ميرهارد : موارد الأرض تكفي يا فخامة نائب الملك.. ولكن.. إنها أمور قد تضحكون منها.. فبينما الناس يأكل بعضهم البعض من شدة الجوع في أنحاء آسيا وإفريقيا، تلقي المراكب حمولتها من ملايين الأطنان من القمح - وهذا غذاء رئيسي عندنا - في عُرض البحر وكذلك اللبن، وما يفعلونه بالقمح يفعلونه أيضاً بالزبد... وكذلك سلع أخرى كثيرة مما يستخدمه الإنسان في طعامه.

مينور : (منفعلاً) هذا هو الجنون.. لماذا يحدث هذا؟

ميرهارد : لست أدري بالضبط... ربما للمحافظة على أسعارها العالمية حتى لا ينخفض ثمنها في السوق الدولي، فتقل أكوام النقود عند منتجي هذه السلع» (ص: ١١٣ - ١١٥).

وفي هذا المجال يعرض المؤلف لظاهرة امتهان الإنسان على الأرض، ومسخ إنسانيته، من قبل الأنظمة المتعسفة، ويقدم العالم السويدي من نفسه نموذجاً لذلك، فبعد أن نشأ على حب الخير والمُثل السامية، ينقلب إلى أداة في يد الدمار الجهنمي...

«رينهارت : كنت أحب الإنسان أينما وجد، وأتصور أن الأرض كلها وطني، وأن على كل مخلوق فيها أن يسعى بكل ما أوتي لجعل الحياة فيها سهلة وطيبة.. وهكذا بدأت.. شاب يسعى بطموحه نحو رفاهية العالم عن طريق العلم واكتشاف المجهول.. وكانت اكتشافات الذرة هي الساحة العذراء لكل من يريد أن يكتشف أو يبتكر.. موضوع حديث لا يعرف العالم عنه كثيراً.

أولاس : (مستغرباً) اكتشافات الذرة موضوع حديث عندكم؟

رينهارت : نعم.. نحن ما زلنا نحبو في هذا الاتجاه.

مينور : وفي هذه الفترة لا بد أن تأتي العثرات.

رينهارت : وذهبتُ إلى ألمانيا للتـدريس في جامعـاتها.. وانشغلت بدراساتي وأبحاثي، واستحوذ عليّ العمل، وشغِلت عن كل ما عداه.. وفجأة وجدت نفسي وسط الأتون الملتهب، وأعلِنت الحـرب، ووجدت نفسي في شبـه غيبوبـة... وأصبح من الصعب عليّ أن أغادر ألمانيا... ووجدت نفسي شبه معتقل هناك.. لم أملك سوى تنفيذ الأوامر التي كانت تأتي تترى من مقر قيادة الفوهـرر.. أصبحت أنا وأسرتي التي أحببتها من كل قلبي تحت رحمته.. أي بادرة من بوادر العصيان أو التمرد معناه الموت عذاباً في معسكرات الاعتقال... الضعف.. التـردد.. الجبن.. تجاهل المسؤولية.. كل هذه الأشياء وجدت نفسي مصاباً بها...» (ص: ١٠١ ـ ١٠٣).

ومن صور امتهان الإنسان ما يديره المؤلف من حوار حول الأنظمة الجاهلية التي تمارس الإرهاب ضد شعوبها، وتسوِّغ ذلك، وترتكب مجازر أعنف ممن سبقها، ولكنها تستر ذلك بالجدار الحديدي الذي تضربه على شعوبها المقهورة، فلا تتسرب أنباء القهر والتعذيب..

«رينهارت : في قسم كبير من الأرض تكتل اجتماعي قام منذ اللحظة الأولى ينكر إيمانه بكل شيء إلا شيئاً واحداً هو الحزب.. الحزب الذي يمثّل دكتاتورية (البروليتاريا).. وفي سبيلها يهون كل شيء.. وأحالوا قطاعاً كبيراً من الأرض إلى سجن رهيب.. وتحول الآدميون إلى آلات هادرة، تُعطَى من القوت ما يقيم أودها، ويجعلها تـدور.. ولا تكف عن الدوران.. وانمحى من نظامهم كل ما يتصل بجوهر الروح

الإنسانية من معنويات. . .

مينور : (في دهشة) يبدو أن الأرض هي المكان الوحيد الذي يمارس فيه الإنسان أعمالاً لا يؤمن بها ولا يعتقد بصحتها.

رينهارت : (بألم) آه لو تعلمون معنى النفي إلى سيبيريا في أشد المناطق برودة، مما يجعل الدورة الدموية تكف عن الدوران. . آلام. . بؤس. . جوع. . ضيق. . شتاء. . تشرد. . ذل. . . وفي نفس الوقت تخصص كل مقدرات الدولة لسحق أي مقاومة وأي بادرة من بوادر العصيان والرغبة في تغيير هذه الأوضاع الفاسدة. . .

مينور : إني لأعجب من أن يكون هناك نظام دعامته خوف الأفراد من الفئة القائمة عليه (!)» (ص: ١٠٥ ـ ١٠٧).

وعلى المريخ، حيث يمكن كشف هذا النظام المتستر بالأفكار، والذي يقمع إرادة الشعوب ويخضعها لفكرة واحدة، معطلاً إرادة الإنسان، ومبتذِلاً إنسانيته التي كرمه الله بها، يجري الحوار مع رائد مركبة سوفيتية، التقطته أجهزة المريخ، وكانت مركبته متجهة إلى الشمس، وكأنه جاء من الأرض إلى المريخ ليشهد محاكمته. . .

«سوخالوف» الروسي : لقد كنت أطمع يا مولاي أن تمدوا يد العون لتخليص الإنسانية من ربقة الذل، ومن تحكم الرأسماليين في أقوات العمال وحقوقهم.

رينهارت : (بغضب وغيظ) يد العون من أجل استمرار المذابح. . من أجل حملات التطهير. . من أجل الطوابير فوق ثلوج سيبيريا لكي تلقى حتفها؟ من أجل القضاء على حريات الشعوب المقهورة؟ يد العون لسحق كل زهرة تريد أن تتفتح ـ لقد ذهبتَ بعيداً أيها السيد. . .

سوخالوف : أي شعوب مقهورة تتحدث عنها؟

رينهارت : (مهتاجاً) هذا الذي التقطته من كلامي؟ تجاهلتَ حملات التطهير، وطوابير الإعدام.. ونظام التجسس الرهيب، وعدت تسأل عن الشعوب المقهورة؟ كأنك لم تكن تعيش في العالم.. هل نسيت مذابح المجر؟ هل نسيت الدبابات وهي تملأ الشوارع كالجراد لتسحق أمامها جميع الشعوب الوادعة العزلاء من السلاح، ومن قبل ذلك كانت بلاد أخر.

ميرهارد : لقد بلغ عدد القتلى بمدينة «بودابست» يوماً ما عشرة آلاف إنسان.

زهراء : (زوجة الملك) عن أي شيء تتكلم يا ميرهارد؟

ميرهارد : عن العشرة آلاف فرد الذين قتِلوا في يوم واحد من أيام ثورة المجر.

زهراء : (في غاية العجب) في يوم واحد؟!...

سوخالوف : (مغمغماً) لقد كانت اللجنة المركزية مضطرة لهذا الإجراء.

رينهارت : ... لا شيء على وجه الأرض كلها يساوي موت إنسان بريء واحد... حملات الإبادة لمسلمي التركستان.. هل تظن العالم يغفل عنها رغم تكتمكم الأخبار؟ لقد ذهب ضحية هذه الحملات عشرون مليوناً أو يزيد من المسلمين في أزبكستان والتركستان وجبال القرغيز، ولم يكونوا رأسماليين.

سوخالوف : لقد كانوا رجعيين وانهزاميين، ويريدون من التاريخ أن يعود إلى الوراء.. ومن أجل المستقبل الذي يحلم به كل مخلوق لا بأس بقليل من العنف، إنها جراحة ضرورية لمريض حكم الأطباء عليه بالموت...

ميرهارد : أنت تملؤني غيظاً وكمداً.. لماذا تفرضون وصايتكم على

الشعوب؟ من أعطاكم هذا الحق؟ من حق أي إنسان أن يختار الحياة التي يريدها.

ليديا : (بانفعال) هذا الإنسان خائن لقضية الإنسانية يا صاحب الجلالة.. والمأساة التي تعيشها الأرض هي بسبب هذا المخلوق وأمثاله.. إنهم يريدون أن تتغطى الأرض ببقعة كبيرة حمراء من الدم، ويموج العالم باليتامى والأرامل والجياع» (ص: ١٥٦ ـ ١٥٩).

ولكن أجهزة المريخ التقطت رائداً آخر أمريكي الجنسية، كانت مركبته متجهة إلى الشمس. وعلى المريخ ثاب إليه رشدُه الإنساني، وأخذت تتكشف له الحقائق، بعيداً عن تهويلات الأرض وضغوطها، لذا ينطلق بإدانة نظامه الجاهلي، ويكشف عن مجافاته للإيمان بالله، ويحذّر البشرية من الهاوية..

«سكوت (الأمريكي) : وأنا تتملكني رغبة في أن أصرخ بصوت عالٍ يسمعه كل من في الأرض.. احترسوا فإن النهاية وشيكة وهي أقرب مما تظنون.. يا علماء الأرض.. ويا حكماء الدنيا.. ويا عامة الناس، خافوا الله وأعطوه مجداً.. فقد أوشك يوم الدينونة أن يدهمكم..

ليديا : (بعد فترة صمت قصيرة) سوخالوف لا يؤمن بالله...

سكوت : إن موقفهم قد يكون أكثر وضوحاً من موقفنا.. لقد أعلنوا الحرب على الله صراحة، وقاطعوه، وناصبوه العداء.. وأصبح موقفهم محدداً واضحاً من الله.. أما نحن.. فالحقيقة.. التي أدركتها هنا فقط ـ أننا لم نكن أقلَّ كفراً منهم بالله.. لم نكن نقول هذا، ولكنّ واقعنا كان ينطق بهذه الحقيقة الدامغة.. أيكفي أن تكتظ المدن بالكنائس

وأن نسمع دقات أجراسها صباح كل أحد مجلجلة، يسمعها كل من له أذنان.. أيكفي لكي نكون مؤمنين أن نرسم علامة الصليب قبل أن ننصرف إلى مضاجعنا؟ الإيمان بالله حقيقة وواقع يُرى ويُلمس، ويُحس ويتحرك.. لم نكن على شيء من هذا.. كنا نتظاهر بالإيمان لأن الآخرين قد أعلنوا كفرهم.. ونحن أفضل منهم، ونمثّل الورثة الشرعيين للحضارة... لقد كان كل فرد منا يحارب الله حرباً عنيفة لا هوادة فيها، منذ أن يستيقظ من نومه صباحاً حتى يعود إلى فراشه في المساء، يحاربه في تحركاته وسكناته وتصوراته.. إننا لا نختلف عن الشيوعيين من هذه الناحية» (ص: ١٨٧ - ١٨٨).

* * *

٢ - البحث عن الخلاص:

إزاء ضياع الإنسان على الأرض، وفقده التوازن بفعل الجاهليات المصطرعة يقود المؤلف شخصياته الرئيسة للبحث عن مخلص، عن حل لمعضلة البشرية، ويختار - كما رأينا - بقعة بعيدة عن الأرض حيث هبطت مركبة (رينهارت، وميرهارد، وليديا) على ظهر المريخ بوصفه المكان البديل عن الأرض، وقد صدقت ظنونهم، فعالم المريخ - كما يصوره المؤلف - قد سبق الأرض بمراحل، وترك خلفه تُرّهات الأرض وحروبها.

وتقطع شخوص المسرحية بهذه الرحلة مسافة فكرية هائلة في البحث عن طريق الخلاص، يعبر عنها أحدهم..

«ميرهارد : هناك طريق لا نعرفه غاب عنا.. ولكنه موجود.. ويعرفه كثير من الناس لا نعرفهم.. الحياة لا تُفضي إلى باطل..

كل سطر من كتاب الكون الكبير يشير إلى هذه الحقيقة بوضوح وجلاء» (ص: ٢٠٠).

* * *

٣ ـ رؤى العالم الثاني:

على سطح المريخ انتقلت الأنظار من عالم الأرض إلى العالم الثاني الذي ينشد فيه الإنسان خلاصه، ويودعه تطلعاته وأمانيه، فعلى سطحه صفت رؤية الإنسان ـ بعيداً عن الأرض، وأخذت تستنير رؤاه ـ. . .

في حوار بين ليديا ورائد الفضاء الأمريكي، وهما على ظهر المريخ، وبعد أن ثاب الأمريكي إلى إنسانيته، حدثها عن صاروخ «تيتان» الرهيب الذي يمكن بعد إطلاقه أن يجعل من مدينة كموسكو بخاراً يتطاير في الهواء. . .

«ليديا : وكيف يمكن أن يتنبه العالم للهاوية التي يتحرك نحوها؟

سكوت : لا فائدة، كلهم يجري في السباق الجنوني نحو الموت. . ولكي يستيقظوا من هذا السُّبات، عليهم أن يقطعوا المرحلة التي قطعناها أنا وأنتِ والآخرون» (ص: ١٨٥ ـ ١٨٦).

وفي مكاشفة بين رائدي الفضاء الروسي «سوخالوف» والأمريكي «سكوت» برزت لهما حقائق جديدة عن العالم الأرضي الذي خلفوه وراءهم، فأخذا يعيدان النظر في حقائق الحياة في ضوء مفاهيم العالم الجديد. من ذلك حوارهما عن حقيقة الموت والحياة حين استقر في روع سوخالوف أن سلطة المريخ ستحكم عليهما بالموت. .

سوخالوف : . . . أتظن أنه من الممكن أن يحكموا علينا بالموت؟

سكوت : هذا محتمل.

سوخالوف : ولكن كيف لي أن ألقى الموت؟.

سكوت : (ببساطة) كما يلقاه سائر الناس.

سوخالوف : لا أستطيع أن أصدق أن هذه الأفكار والمشاعر والآمال، والأحلام التي تجيش في صدري كالموج الصاخب تنتهي وتتحول إلى عدم.. وأصبح بعدها لا شيء.... إنها حقيقة لا أقدر على تصورها.

سكوت : إنها ليست حقيقة.

سوخالوف : ماذا تعني بأنها ليست حقيقة؟.

سكوت : الإنسان خلِق ليحيا.. ولا يمكن أن أتصور أن الحياة بهذه المناحي الكثيرة تتدفق إلى لا شيء.. إلى العدم.. هذا لا يمكن أن يكون.. أنت نفسك تجد في داخلك ما يستنكر هذا الفهم.. أنت لا تقوى على مواجهة الموت لأنك لم تفهم الحياة.

سوخالوف : ولماذا لا يكون كلانا قد أخطأ فهم الحياة؟.

سكوت : هذا المعنى كان يدور في نفسي منذ تولاني الشعور الذي تحس به.. وهو أننا قد أخطأنا فهم الحياة... إننا أخطأنا الطريق منذ زمن ليس باليسير.. إن مجتمعنا قد انقطعت جذوره.. وإذا أردت أن تكون أكثر صراحة فقل إن مجتمعنا منعدم الجذور... خليط من المغامرين وشذّاذ الآفاق، والذين كوتهم نار الاضطهاد.. كل هؤلاء قدِموا من بلادهم الأصلية التي لفظتهم إلى بلاد مليئة بالثروة والخصوبة والرخاء.. ماذا فعلوا عندما حلوا بهذه الأرض؟.. قتلوا أهلها الأصليين.. ونسوا أنهم كانوا محل اضطهاد قبل ذلك.. الأرض التي يعيش عليها مجتمعنا العظيم مسروقة

من أصحابها الشرعيين.. الهنود الحمر.. إنها حقيقة ولكن نتجاهلها للأسف طول الوقت.. أموال لا حصر لها، وثروات تتكدس تكديساً.. إذن فلنشترِ العالم.. ودخلوا سوق المساومات يبيعون الأمم ويشترونها ولا يعنيهم إنسان، ولا يرعون حقاً في الكرامة والحياة.. وأصبحت دولتنا كالأبله المأفون الذي ورث ثروة طائلة وتحكمه أهواؤه ونزواته بلا ضابط أو رادع.. فظن أن هناك ثمناً لكل شيء، وأراد في الوقت نفسه أن يشتري كل شيء.. ولم يكن يعلم أو كان يعلم ولكنه يتجاهل أن الإنسان ليس سلعة تُشترى أو تُباع.. لقد ارتكبنا كل الموبقات يا عزيزي... إن عارنا لا يقل سوءاً عن عاركم.. ولكنا نحميه بستار من الحرية الزائفة والديموقراطية...

سوخالوف : يبدو أن العالم كله شرير يا سكوت... ما الفرق بين أن تشنق إنساناً بحبل.. أو أن تغلق عليه حجرة مليئة بزهور النرجس حتى الصباح.. إن النتيجة واحدة.. يبدو أنني أنا الآخر قد خُدِعتُ.. لقد خدعتني اللجنة المركزية.. لقد ضاع عمري.. إن رأسي يكاد ينفجر (يجلس ويضع رأسه بين يديه ويقترب منه سكوت ويضع يده على كتفه بلطف)» (ص: ١٧٦ - ١٧٩).

وتتفتح آفاق «سكوت» على المريخ، فيعيد النظر في مهمته التي كان قادماً لأجلها خدمة لأسياده، فيصب جام غضبه على الطغاة الذين يدبرون دمار البشرية، ويجدهم من السخف والصغار والحمق بمكان..

سكوت : لقد قدِمت إلى هنا تمهيداً لإقامة قاعدة ذرية تهاجم الاتحاد السوفيتي.. كلا، لقد نسيت.. لم يكن هذا هنا.. كان

مفروضاً أن يكون على القمر.. أين أنا من القمر الآن؟ أو من الأرض؟ كلاهما بعيد عني.. لقد كان الحمقى يريدون إقامة قواعد ذرية على القمر.. الأرض تبدو في مخيلتي كذرة رمل تافهة.. كل من فوقها سخفاء.. إنهم يتصارعون من أجل لا شيء... لقد كنا مهرِّجين.. وكنا أيضاً أغبياء.. نتقاتل وندور في دوامة مسعورة من سفك الدماء ومن الضلال» (ص: ١٨٢ ـ ١٨٣).

وحيث خلّفت شخصياتُ المسرحية الواقع الأرضي المصطرع لتصفو رؤيتها، وتتضح نظرتها إلى الحياة، يجلو لنا المؤلف أفق الواقع الثاني بوصفه سمة الأدب الإسلامي في الارتقاء بالنفس الإنسانية عن الواقع الحادث، إلى ما يرقى بنظرتها، ويسمو برؤيتها.. وذلك من خلال تجربة شخوص المسرحية الذين وجدوا في المريخ الواقع الثاني حيث يتحرر الإنسان من عبوديات الأرض، وتعود إليه إنسانيته...

«ليديا : ولكنّ الروسي وكذلك الأمريكي قد علما أي ضلال كانا يعيشان فيه.. لقد استيقظا تماماً من السُّبات الذي كان يلفّهما.

ميرهارد : الروسي أيضاً؟ هذا غريب حقاً.

ليديا : إنه مسكين.. وقد أدرك تماماً أنه كان وأمثاله لعبة يلعب بها زعماء الكرملين.. كان يفسد حياته من أجل دنيا الآخرين.. وكان يظن أنه يصنع فجراً للإنسانية ومستقبلاً للأجيال القادمة.

ميرهارد : إنهما ينظران إلى تجربتهما من مكان مرتفع.. فتبدو لهما كل الأبعاد واضحة ظاهرة.. ومن السهل عليهما أن يتحققا من الأخطاء التي كان يمارسها كلٌّ منهما، فمعقول أن يرجعا

عن موقفهما الأرضي. في المريخ لا يبذل الإنسان جهداً كبيراً في تقصي الحقائق.. أما على الأرض فمن السهل أن يُخدع الإنسان، وأن يوهم بوجود نصُب أمامه على مرمى النظر.. ويخشى أن يُرمى بالجهل أو يُظنّ به التأخر وعدم الوقوف على مستوى الأحداث والحياة، فيتصور أن الخداع الذي يوهمه به الآخرون حقيقة، ويخشى أن يصرح بعدم رؤيته ما يقولون، فينكشف جهله وتأخره.. ولو علم الحقيقة لأدرك أن الجميع لا يرون شيئاً (!)» (ص: ١٩٤ ـ ١٩٥).

* * *

٤ ـ عالم الفطرة والنظام الرباني:

من خلال ما مر معنا من أحداث المسرحية ومواقفها تشرق أمامنا على المريخ ظاهرة إنسانية أساسية في حياة البشر.. إنه بالرحلة التي قطعها أبناء الأرض إلى المريخ تصفّت نفوسهم من الضغائن والمطامع والاصطراع على المادة والنفوذ.. وعادوا إلى أصل الفطرة البشرية التي برأ الله النفوس عليها.. فإذا بأبناء الأرض يعودون ـ على المريخ ـ أصدقاء. خصومُ الأمس هم أصدقاء اليوم، بعد أن برئوا من ترهات طغاة الأرض ومطامعهم.

وهنا أخذ المريخ، أو العالم الثاني، يتعهد هذه النفوس التي استعادت نقاء فطرتها بالحقائق الإيمانية.. عرفوا أن الإيمان يولّد الطاقات، وهو سرّ الإنجازات البشرية، وأن الابتعاد عن الإيمان يورث الفوضى والصراع بما يؤدي إلى الفناء، يُدير المؤلف في ذلك الحوار التالي:

«مينور : وجاءت فترة من الفترات ابتعد كل سكان المريخ عن تعاليم النبي الأخير.. الذي كانت تعاليمه هي الأساس الصحيح للحضارة، ولتفسير الأشياء ووضعها في مكانها الصحيح.

زهراء : وبعد أن أوشكت المشكلة أن تبلغ مداها وتأتي بنتيجتها الحتمية، وهي الفناء الكامل، كان لا بد أن يحدث شيء يرد الأمور إلى نصابها.. وكانت تعاليم الأنبياء قد هجِرت تماماً.. وصار دليل التقدم والفهم هو ترك هذه التعاليم.. هذا كان تاريخاً بعيداً درسناه ونحن صِغار.

أولاس : وبعد ذلك.. الحجر الذي أهمله البناؤون صار رأس الزاوية، وعادوا إلى الدين مرة ثانية.. وهو الذي حرّكهم حركة صحيحة نحو التقدم والفهم والرفاهية..

مينور : وكان الدين هو الخلاص الأخير من الحروب والفتن والضياع...

رينهارت : (متذكراً) والتقدم الفائق في العلوم.. لقد رأينا أشياء فاقت كل التخيلات البشرية.

مينور : لو علمت لعرفت أن للدين أثره في كل هذا.. سلامةُ الاعتقاد تقود الفرد إلى الشفافية.. والشفافية هي مفتاح العقل لمعرفة الأسرار.. وتجعل الحدس خاصة من خصائصه.. والحدس ضرب عالٍ من الفكر.. والابتكار والاختراع صورة من أرقى صور الإلهام والوحي.

ميرهارد : هذا يفسر المنظر الذي رأيته في أكاديمية العلوم التي زرناها...

أولاس : وماذا رأيت؟

ميرهارد : لقد رأيت أحد العلماء وهو يبحث أمام جهاز من مجموعة أجهزة أمامية.. وجدته قد انتصبتْ قامتُه، وخشعتْ نظراتُه، وأطبق يديه ووضعهما رأسيّتين على صدره. ثم أخذ يتمتم بشفتيه، ورأسه مطرِقة في خشوع.

مينور : إنهم يبدؤون أبحاثهم بالصلاة.. وإذا استعصى عليهم شيء فإنهم يستعينون عليه بالصلاة التي تجعل الحس يرق والروح تشف، مما يشكل طاقة كبيرة للعقل تجعله يعمل.

ميرهارد : لقد تصورت ساعتها أن الرجل يصلي.. ولكن لا أدري لماذا طردتُ هذا الخاطر من رأسي.

زهراء : لأنكم ربطتم في أرضكم بين التقدم والإلحاد (ص: ١٣٢ - ١٣٣).

وقد عرف أبناء الأرض أيضاً، من خلال النظام الرباني الذي يمثِّل له نظام المريخ في المسرحية، أن للإنسان كرامته، وليس لكبير أن ينتقص منها، فالملك كسائر الناس، إنما هو أثقل الناس حملاً...

(رينهارت مع ملك المريخ مينور، وليديا وميرهارد، يتحدثون في القاعة التي أفرِدت لهم).

«رينهارت : (في حنان) كيف أنتما يا ولديّ؟ أرجو أن تكونا قد تمتعتما بمحادثة الملك مينور العظيم **(يوجه خطابه إلى ميرهارد وليديا)** ملكِ كوكب المريخ **(يشير ناحية مينور الذي يبتسم، بينما تبدو الدهشة والارتباك على وجه كلٍّ من ميرهارد وليديا).**

ميرهارد : إني لم أدرك شخصكم يا صاحب الجلالة **(ليديا تقف منفعلة وكذلك ميرهارد الذي ينطق بهذه العبارة وهو واقف على قدميه).**

مينور : (في بشاشة) لا تُرَعْ أيها الغلام.. الملك هنا يختلف عن الملوك عندكم فيما يبدو، فمن الواضح أن ملوك الأرض مصدر رعب وفزع لكم.

(الجميع يشيرون برؤوسهم إشارة الموافقة على كلامه).

تفضلوا بالجلوس.. تفضلي أيتها الصغيرة، ولا تعودي تضطربين ثانية..» (ص: ٩٧ - ٩٨).

وعلى المريخ ـ أو في العالم الثاني ـ حيث صفت القلوب، وعادت إلى فطرتها، أدرك أبناء الأرض أن ما بأيدي الناس من أسرار هذا الكون الكبير، إنما هو أمانة في أيديهم ليعمروا الأرض.. هذه الطاقات الهائلة سخرها الله للإنسان كي يستعين بها في بناء حياة البشر المهتدية بهدى الله، ولكي يقيم على الأرض شرع الله ونظامه، بمقتضى تكليف الإنسان بالاستخلاف عنه في الأرض.. ويعكس المؤلف هذه الفكرة من خلال مسرحيته التي تمثل أفق العالم الثاني في الأدب الإسلامي، فيروي لنا ما يمكن أن يبلغه الإنسان من مبتكرات تسخَّر لخير البشرية في بيئة طمأنينة وسلام، وعلى مستوى من الذوق الرفيع...

«ليديا : (متحدثة عن مشاهداتها في المريخ) أشياء كثيرة بهرَتْني.. كل ما رأيته كان مثيراً ورائعاً غريباً.. وأشعَرني بالتضاؤل.. حوض السباحة الهوائي مثلاً.

ميرهارد : حوض سباحة هوائي؟ ما معنى هذا يا أولاس؟ إننا لم نرَهْ.

أولاس : نراه غداً إن شاء الله.. لقد شغلتنا أشياء أخرى كثيرة.

ميرهارد : ما هذا الحوض الهوائي يا لِيلي؟

ليديا : أخذتني زهراء بعد الجولة الساحرة لكي نتناول طعامنا في مكان لا وصف له إلا الجنة... في هذا المكان كان حوضٌ زجاجي كبير ارتفاعه حوالي مائة وخمسين متراً، وطوله حوالي ألف متر... وعرضت عليّ زهراء أن نسبح فيه بملابسنا كاملة.. ووجدت نفسي تنساب كالنغم المتناسق.. وشعرت بإحساس أخّاذ بالمتعة والهناء.. ولا أدري كيف تم هذا؟.

رينهارت : وكيف تم هذا يا أولاس؟

أولاس : بتسليط مجموعة من الإشعاعات على الهواء تزيد من

كثافته، وتجعل الأجسام تطفو على سطحه.. وبشيء من الخلخلة المتناسقة تجعله قابلاً للسباحة والتريُّض...

رينهارت : وهل عندكم اتصال بالكواكب الأخرى؟.

أولاس : نعم.. ولكنها الكواكب غير المسكونة.. عدد سكان المريخ يتزايد وأمامنا كون زاخر بالمجرات والكواكب التي ليس فيها أحد.. فنرسل إليها سكاناً جدُداً أو نعمرها ونملؤها بالحياة.. وينتقل الفرد إلى كوكب آخر في زِمن وجيز.. أما وسيلة الانتقال الشائعة فهي (الحوامة) التي رأيتموها في طرقات المدينة.

ميرهارد : (مستفسراً) المركبة التي ترتفع عن الأرض بالقدر الذي تريده.. وتتحرك بالسرعة التي يريدها ويحددها السائق؟.

أولاس : نعم، إن سرعتها يمكن أن تصل إلى ثلاثة آلاف ميل في الساعة بحساباتكم... ولا يمكن أن تتسبب في حادثة واحدة، فهناك ممرات لكل واحدة... وتحيط بها حزمة من الإشعاع تشكل حولها سياجاً يقيها من أية مصادمات...

رينهارت : وطبعاً تعمل بوقود ذري؟

أولاس : أنواع منها تعمل بالوقود الذري، وأخرى بالطاقة الشمسية التي تُعَد من أرخص أنواع الطاقة الموجودة عندنا.. وأنواع أخرى بالماء..

ليديا : (متعجبة) بالماء؟ كيف هذا؟

أولاس : في الخزان الخاص بالوقود المثبت بجانب الحوامة جهاز صغير يقوم بتحليل الماء.. وبالتالي يكون الاشتعال.. وبعد ذلك يمكن لها أن تتحرك.

رينهارت : إنه لا يصدر عنها صوت.. وهذا أحسن ما فيها.. ولا توجد

ضجة.. لا يوجد صخب.. الكل يتمتع بالهدوء الضارب حول المدينة.

أولاس : الصوت يتراكم ويتكثف ويُمتَص في جهاز صغير بجانب المحرك.. ويوضع كذلك بجانب الأشياء التي تصدر صوتاً، وذلك حرصاً على راحة السكان.. فيتحرك المجتمع حركته ليتمتع الأفراد بمزيد من الرفاهية النفسية والمادية.

رينهارت : هذا غاية ما يصبو إليه العلم.

مينور : ليس للعلم حدود يمكن أن يصل إليها.. فالله قد سخّر كل شيء لخلقه، والاختراعات والابتكارات تتوالى في مسلسلات لا نهائية... خصوبة العقل بعيدة الأغوار..» (ص: ١٣٤ - ١٣٧).

ويواصل المؤلف أحمد رائف الحديث عن المخترعات التي يكشف عنها العالم الثاني أو المريخ، هي أحلام الغد، إن أحسن الإنسان استخدامها، تنصرف بمبتكراتها ورقيها إلى رفاهية البشرية وسعادتها، وعماد ذلك إنفاذ مهمة الاستخلاف...

«ميرهارد : والزراعة أيها الملك مينور.. من كان يتصور أنكم تسمدون الأرض بالإشعاعات والموجات؟

مينور : لقد تم اكتشاف أكثر من مليون نوع من الإشعاعات الموجودة في الكون.. وقد ثبت أيضاً للعلماء عندنا أن لكل صنف من هذه الإشعاعات أكثرَ من ألف استعمال.

رينهارت : من أغربها ذلك النوع الذي يسلط على الجروح فيلتئم في أقل من عشر ثوان..

ليديا : ... وتعجبت لأن الجرح يختفي ولا يعود يُرى له أثر، والشيء الطريف أن المريض يخدّر في الاستقبال ولا يفيق

إلا ساعة الخروج وقد أصبح سليماً معافى لا يشكو من شيء.

ميرهارد : وزراعة الأعضاء، وتجديد الخلايا..

أولاس : هذا يتم بسهولة وفي يسير من العمل.. ولا تستغرق زراعة أي عضو أكثر من دقيقتين.

رينهارت : (مستفسراً) تأثير الإشعاع يكون على الأحماض التي تفرزها العضلات والتي تسبب التعب..؟

أولاس : بالضبط يا رينهارت.. تتحول الأحماض بعدها إلى مادة تفيد الجسم.. ويعود الفرد نشيطاً كأنه نام أسبوعاً كاملاً».

(ص: ١٣٨ - ١٣٩).

* * *

٥ - البناء بعد التطهير:

وعلى المريخ، أو في الواقع الثاني الذي يرصده الإنسان البصير، يصغي الجميع إلى نبأ كارثة الأرض...

«مينور : فلتتذرعوا بالشجاعة، ولتنصتوا إليّ والجلَد والصبر رائدكم.. لم يكن ممكناً تلافي ما حدث.. لقد حدثت الكارثة الرهيبة في عالمكم.. قتَل الأبُ أبناءه وانتحر.. قامت الحرب الذرية، واستمرت المأساة نهاراً كاملاً.. ولم يبق الآن مخلوق واحد على قِيد الحياة، باستثناء جزيرة صغيرة في المحيط سلِمتْ من التدمير والإشعاع، وليس بها سوى بعض الحيوانات.. كان مقدّراً أن ينجو كلٌّ منكم من هذا المصير المحتوم.

(يبدو على الجميع وجوم تام وصمت..)

رينهارت : (يبدو عليه الشرود ويغمغم) كأنما سفينة نوح تحركت على قـدَر، وأنقـذتْ أفـراداً مختلفي الشكـل في اللحـظة الحـاسمة.. وبعـد ذلـك جـاء الـطوفـان وغمـر الأرض المسكونة.

سوخالوف : هل شملت الانفجارات الأرض كلها؟.

مينور : معظم المدن الموجودة.. الذين لم يموتوا من الانفجار ماتوا من الإشعاع.. لقد بذلنا غاية وسعنا، ولم نستطع شيئاً.. كل ما فعلنا أننا امتصصنا كل الإشعاعات الموجودة في الغلاف الجوي للأرض.. وكان هذا بعد فوات الوقت.. لم تكن هناك أي فرصة.. أنا آسف من أجلكم جميعاً» (ص: ٢١١ ـ ٢١٣).

ومن حمّى اليأس التي أصابت الجميع بانهيار الأرض، يتألق نور المسؤولية في رأس «ميرهارد»، الذي كان هاجر إلى المريخ مع خطيبته وخالها، حين استحال العيش على الأرض، أما الآن وبعد أن تطهرت، يجد أنه قد بدأ دورُه المتمثل في بناء الحياة على الأرض من جديد، على أنقاض مقومات الفناء التي انهارت بأصحابها، ولا سيما قد امتلك على المريخ ـ أو في حياة العالم الثـاني ـ مقومات الحياة الفطرية التي يبني على قواعدها النظام الرباني في الأرض، وقد أفاد من تجربة المريخ أو مجتمع المريخ الواقع والتطبيق لهذا النظام، لذا يصدع «ميرهارد» بفكرته بين القوم بكل قوة، وقد امتلأت بها نفسه، وأضحت هدفه في الحياة.. وكأن الله قد ادخره وخطيبته لهذه المهمة..

«ليديا : لقد انهارت الحياة وتوقف التاريخ...

ميرهارد : كلا يا ليديا.. الحياة ما زالت موجودة ولم يتوقف التاريخ..

لقد بدأ دورنا من حيث انتهى الآخرون.. الحياة كالنبع السيال لا تتوقف، ما دامت هناك أنفاس تتردد، وما دام هناك أحياء.. لقد تنكب الآخرون الطريق فلنلتزم نحن.. وحتماً سنصل إلى الغاية الكبرى التي من أجلها خلِق الإنسان.. إننا لم نخرج من الأرض عبثاً قبل الطوفان.. لقد نجونا من هذا الطوفان الشامل لنقوم بالدور العظيم الذي ينتظرنا بعد ذلك.. لا توجد مصادفات.. كل شيء يسير بقدر محسوب ومعلوم.. وسنهبط إلى الأرض يا ليديا ونحمل مقود التاريخ، ونقيم الحضارة، ونيمم وجهنا ناحية السماء..

سوخالوف : ستجدون الخراب في كل مكان.

ميرهاد : (في عزم) سنعمر الأرض، ونبدد هذا الخراب.. سنضيء الشموع في كل بقعة، وستحل الابتسامة المليئة بالأمل على شفاهنا في وجوه الأطفال الذين سيأتون من الغيب (يوجه الحديث إلى ليديا) إنه الواجب الذي ليس من الشرف أن نهرب منه.. لقد كنت أحبك يا ليديا من أجل هذا اليوم..

مينور : لقد كان اختياركم عظيماً ومشرفاً.. هو الواجب الذي قصّر فيه الآخرون، ودمّرت الحياة بسبب إهماله تلك الفترات الطويلة التي مرت بكوكبكم.. واجب الخلافة عن الله في الأرض.. عالمكم المنكود.. ستعودان إليه، ومعكما أيضاً مضاء الإنسانية وعزيمتها نحو التقدم والازدهار في ظل إرادة الله ومعونته وإرشاده» (ص: ٢١٥ ـ ٢١٧).

ويؤكد رينهارت لميرهارد وليديا عِظم التبِعة التي سيقدمان عليها، إنها أمانة الله ووديعته..

«رينهارت : ... إنكما تهبطان إلى الأرض من أجل فجر جديد، ومن

أجل تاريخ جديد.. وإن لم تقوموا إلى الشهادة وإلى الشريعة فلن يكون هناك فجر.. وسيكون لكما ضِعفان من العذاب لأن حقائق الوجود كله بين أيديكم وتحت سمعكم وبصركم» (ص: ٢١٨).

* * *

هذه مسرحية «البعد الخامس» من خلال تناول فذ، ورؤية مستقبلية، استطاع بها المسرحي الإسلامي أحمد رائف ـ بثقافته الواسعة، وموهبته الفنية ـ أن يقدم للأدب الإسلامي مسرحية راقية التصور، تعالج الحياة البشرية في آفاقها الشاملة، على ضوء معطيات الأدب الإسلامي وخصائصه.. فقد كان لأحمد رائف ـ فيها ـ فضل تأليق ظاهرة من ظواهره هي التطلع الإنساني إلى أفق العالم الثاني على مستوى التصور والإبداع، وكان تناوله من الطرافة والرقي ما يجعل مسرحيته باكورة مسرحيات عالمية، يمكن أن تلمس أنامل الأدباء الإسلاميين آفاقها، في تصوير القفزة البشرية إلى الواقع الأكبر، حيث يُعلي الإنسان اهتماماته، ويرقى بتطلعاته على هدى من التصور الإسلامي للحياة والوجود..

وقد اختار أحمد رائف لمسرحيته بُعداً أثيراً كان له الفضل في تحريك المسرحية، وإخصاب أحداثها، والوصول بها إلى الرؤى الإنسانية، ذات الطاقات الواسعة في الأدب الإسلامي.. فلقد وسّع ـ في مسرحيته ـ آفاق الحياة، ومدّ مساحتها لتشمل عوالم الدنيا والآخرة، والمادة والروح، والغيب والشهادة، بما جعل القفزة البشرية إلى العالم الثاني مهيأة الأسباب، ذات قناعة في النفس البشرية، تتلقاها بحسها الإيماني، كأنها واقع مشخّص، ومن خصائص الأدب الإسلامي هذا الشمول والارتفاع الذي يرقى بتطلعات البشرية ورؤاها.

ولا يخفى ما في هذه القفزات الأدبية من إلهامات وإيحاءات للإنسان

المؤمن المعاصر أن يتدارك ـ من خلال مهمة استخلافه في الأرض ـ الحياةَ على وجه البسيطة من الانهيار، وذلك بإنفاذه دوره الذي أناطه الله به في الوجود، بعمران الحياة في ظل ناموس الله وشرعه.

كما تقرع المسرحية بإلهاماتها الصادقة جرس النذير للبشر ليتنبهوا إلى ما يترصدهم من ويلات إذا ظلوا سادرين في جاهليتهم، بعيداً عن ناموس الخالق وهداه. . .

الأصالة الأدبيّة وعمليّة البناء

«كتبتُ هذا المقال ضمن مجموعة من الأحاديث بُثت من الإذاعة الكويتية منذ عشرين عاماً، أدعو أدباءنا إلى إعادة النظر في خط سير الأدب، وانتهاج طريق الأصالة في النتاج الأدبي، وحسِبها البعض مجرد كلمات أزجيت في وقتها، ولكنّ ثمار الأصالة متمثلة في نتاج الأدب الإسلامي المتدفق هذه الأيام، يؤكد أن كلمات هذا المقال لم تذهب عبثاً في حينه، وإنما كانت تنطق بقلوب وآمالِ وتطلعاتِ جيل... وتركتُ للقلم جموحه الذي كان، وفاء لتلك المرحلة من الحياة.

الأدب، الكلمة الآسرة، الموحية الملهمة، هل استطاع أدباؤنا المعاصرون أن يولِّدوا فيها صورة جديدة مثيرة لطاقاتنا، باعثة على تجويد الحياة واستئنافها قوية حارة؟.. هل عبّروا عن النبضات الصارخة في أعماق وجدان أمتنا، تروم الخلاص من التمزق والشتات، وإنهاء عهد من حياة التبعية والانسياق وراء التيارات الأدبية الوافدة الغريبة عن ضمير جماهير شعبنا؟ ألا انطلَقوا من هذه الزاوية إلى نتاج أدب أصيل يؤلق تجارب شعبنا المناضل وهو يخوض معركتي التحرر والبناء بشخصية مستقلة أصيلة..

لعل نكسة الخامس من حزيران تكشف عن ضياع طاقات كبيرة كان

يمتلكها شعبنا في معركة المصير، لم يتعهدها أرباب القلم بالإعداد والتذخير، ولم يكتشفوا كوامن جوهرها فيؤلقوه ويصوغوه.. إن الأدب الذي ظل ينتجه أدباؤنا، لبث يعيد نفسه، ويكرر تجارب تخطاها الزمن.. لم يلبّ رنَوات الجماهير إلى ما وراء الأفق بارتقاب فجر جديد، تجلوه تجارب فذة كشّافة تتخطى الأمداء والأبعاد.. لقد ظل النغم الرتيب يرن في الآذان فلا ينفحها بجديد.. لم يتطور.. لم يتقفّز.. لبث حيث هو من حيث ينبغي أن يسابق موجات الضوء.. وقف والزمانُ يمضي بعيداً بسرعة لامحة خاطفة..

وتناهي أزيز الليل إلى صبح كثيب اكفهرت حواشيه، وأرخت المحنة أوزارها ثقيلةً، سمجة الخطا، فما ألفينا سوى التعزي والتلاوم والندم، ومن ثم التأهب لاستئناف النغم الرتيب من جديد.. ألا هل عقمت قيثارتنا أن تلد جديداً؟ أم إن الجماهير باتت تعاف الكلام لأنها ترجو العمل، فسكت القلم وأضرب عن الكلام.. أجل، للجماهير الحق أن تزهد في الكلام حين العمل.. ولكن ما كانت دعوتنا لتصير كلمة الأدب عملاً وحسب، بل توليداً لطاقات مذخورة، وبعثاً لإمكانات هائلة مدفونة، وبناءً لنفس مؤمنة، فاعلة صبور، لا يهنيها إلا الاستمرار والتصميم.. لا تأبه باللحظات المنحسرة العِجال.. تتقلد كل عظيم، وتنفح بكل جليل، وتغترف من زاد لا يبلى ولا يفنى..

هكذا رسالة الكلمة رسالة كبيرة، وسرها كبير خطير، صنعت لنا يوماً حين ولِدتْ فيها الحياة، وتدفقتْ، خيرَ أمة أخرِجت للناس.. فلمَ ضاعت الثقة بكلمة اليوم؟ لمَ عافها متبرماً بها من يروم البناء الإيجابي والكفاح المستمر؟.

لا شك أن قصورها عن توليد الطاقات، وصنع الآمال، وبناء الرجال سببٌ كبير من أسباب ضياعها وفقدان سحرها وألقها.. فمتى نعيد إليها سحرها الضائع وإلهامها؟.

إنه بعد أن اجتاحتنا ظروف عصيبة عسيرة، لم تدع من النيام في بُلهنية الغفلة راقداً، هزّت بعنفها وثقلها أبلد الأحاسيس وأكثف المشاعر، هل لنا أن نعيد النظر في أدبنا، كما نعيد النظر في حياتنا؟ إن الأدب قادر على تغيير الحياة، وتطوير منابعها. . إن نشدنا فيه الأصالة استحال قوة دافعة واثبة، تشق الطريق لاحِباً نحو التحرر والنهضة، وتجديد الحياة.

* * *

إن للأدب سلطانَه على النفوس والقلوب، يتسرب إليها في غفلة منها وعفوية لا تكاد تعرف المقاومة، لذا كانت كلمة الأدب آسرة نفّاذة على سائر مستويات القول، قصيدة أو قصة أو مسرحية أو مقالة، فلنستطلع في كلمات الروائي الآتية مدى تأثير القصة والرواية في تكوين ناشئتنا، وتأليف دوافعهم النفسية، ومن ثم مواقفهم من الحياة. .

«ربما يتهمني البعض بأنني أبالغ في تأثير الحرفة التي أمارسها، حين أقرر أن أغلبية الشبان والشابات. . . يحصلون على معظم تعليمهم الأخلاقي من الروايات التي يقرؤونها. ستذكر الأمهات تلقينهن الرقيق لأطفالهن، وسيذكر الآباء المُثل الصالحة التي يضربونها بأشخاصهم، وسيتحدث المدرسون عن روعة دروسهم الأخلاقية. ما أسعدَ الشعبَ الذي فيه هؤلاء الأمهات والآباء والمدرسون! ولكنّ الروائي يتسلل في خفية إلى مكان أعمق مما يبلغه أب أو مدرس، ويكاد يكون أعمق مما تبلغه أم، فإنه هو القائد الذي اختاره الشباب لأنفسهم، والمعلم الذي تتلمذوا له عن طواعية».

وللفن، كما يقول أحد الأدباء، تأثيره البليغ نفعاً كان أو ضُرّاً، في صياغة العقل وتكييف السلوك، يضاف إلى ذلك أن تأثيره لا يقتصر على التجربة الواحدة المعينة التي يتناولها، وإنما يعم حتى يشمل البناء الكامل لتنظيمنا العاطفي، فالحقيقة هي أن جميع مجهوداتنا النشاطية تتفاعل، ويؤثر بعضها في بعض إلى درجة عظيمة، فإذا زاد التناسق والانسجام بين

الانفعالات في ميدان معين من الميادين انتقل أثره الطيب إلى ميادين أخرى.

انطلاقاً من هذا القول نلفي الفن العميق الناضج يعدّل من موقفنا إزاء الحياة، ومن تنظيمنا لدوافعنا النفسية تعديلاً عميقاً، بينما نجد أن الأعمال الفنية الفجة التي غلب عليها الاتجار والاستثمار، لا الأصالة والصدق، تسبب ارتباكاً وغموضاً في دوافعنا، وتحط من ذوقنا حتى يقبل مستوى منخفضاً من القيم، نرى هذا بوضوح في تأثر مشاهدي (التلفاز) والسينما، لأن الناس في العادة لا يقلدون ما يرون على الشاشة، كما أنهم لا يقلدون ما يقرؤون في الروايات المثيرة الرائجة، ولو أنهم فعلوا لما كان هناك ضرر كبير، فإن مثل هذا التقليد الواضح يمكن إدراكه وتداركه وعلاجه، أما الضرر الحقيقي فهو أن عقولهم تمتلىء بآراء ومواقف محددة، تتخذ قوالب جامدة، مفصولة عن حقيقة الحياة، وهي المواقف والآراء التي يروّجها المخرجون، وتتسم بالفجاجة وعدم إمكان تطبيقها على الحياة الواقعة.. إن الفيلم العادي مبني على تجارب كاذبة، فالذي يشاهده بقبول وتلذذ لا بدّ أن يصاب باضطراب مواقفه العادية في حياته اليومية (المثال عن طبيعة الفن ومسؤولية الفنان لمحمد النويهي).

* * *

بعد أن أدركنا أثر الأدب بفنونه المختلفة في توجيه الدوافع النفسية وتكوينها، نلفي أنفسنا أمام حقيقة خطيرة; هل ندع نوافذ حياتنا الوجدانية ومفتاح تكوين دوافعنا وميولنا وأركان شخصيتنا مفتوحة للأمواج الوافدة، تضطرب بها من هنا وهناك، فتعوِّم شخصيتنا وتفقدها لونها وأصالتها؟! أم نحن مدعوون إلى الإهابة بالمسؤولين عن أمانة الكلمة ومسؤولية الحرف من أدبائنا أن يدركوا دورهم التاريخي في تأصيل أدبنا، والارتفاع به من المستوى الراهن إلى أدب يحقق شخصيتنا، ويبني حياتنا، ويبوئنا مكاننا في تاريخ الحضارة الإنسانية.

فالأدب في أمة تقويم لحياتها، وتاريخ ألِق لمراحل نهوضها وصعودها سلالم المجد والرفعة. قال الخليفة «عمر بن الخطاب» رضي الله عنه: «الشعر ديوان العرب» أي مرآة حياتهم وأيامهم ومفاخرهم. وقد عبر حديثاً عن المعنى نفسه الأديب الفرنسي «لانسون»: «تاريخ الأدب جزء من تاريخ الحضارة للحياة القومية للأمة، نجد في سجله الفني الطويل سائر تيارات الأفكار والمشاعر التي امتدت إلى الأحداث السياسية والاجتماعيةأو تركزت في النظُم، بل ونجد كل هذه الحياة النفسية الدفينة التي لم تستطع - بما فيها من آمال وأحلام - أن تتحقق عملاً». ثم يقول: «نحن ندرس تاريخ النفس الإنسانية والحضارة القومية في مظاهرها الأدبية.. ونحن إنما نحاول دائماً أن نصل إلى حركة الأفكار والحياة من خلال الأسلوب..».

* * *

بعد هذا الاستعراض لقيمة الأدب في بناء الحياة وشيادة الحضارة، وبعد إدراكنا لأثره وخطره، وتذكُّرِنا أننا أمة تود أن تستعيد مكانتها بين الأمم حضارة، وتحرراً، ونهوضاً. على كواهلها أعباء جِسام، وعلى حدودها، بل في حدودها يجثم عدو يتهددها.. لا مفر لنا أن ندرك ما رسالة أدبنا؟.

رسالة أدبنا التي تنبع من شخصية أمتنا، وطاقاتها، وتكوينها الروحي والنفسي تعكس أهدافاً وآمالاً سامقة، تدفع بجماهيرنا إلى إدراك دورهم في الرسالة التحريرية الكبرى المنوطة بهم، باعثة في القلوب تيار حياة جديد يودِّع التواكل واللهو واللامبالاة إلى عزائم صخرية، على مستوى الأحداث والعصر، تُرسيها ينابيع صافية من الإيمان العميق، والتضحية الباسمة في معارك التحرر، يشفع ذلك الجِد والتكريس وتوليد الطاقات في معركة البناء..

فإلى أدب أصيل يعكس حياتنا المستقبلة التي تتراءى لنا فيما وراء الغد

أقـوى، وأمتن، وأوفر استئنـافاً للعـراك والبناء.. نمـدّ أبصارنـا، ونهيب بمتأدبينا.. فنحن مدعوون إلى تحقيق وجودنا الأصيل في تفكيرنا وبواعث حياتنا، في عواطفنا ومواجدنا، لنكوّن بذلك الوجود الحي الحار الذي يحرر، ويبني، ويرود..

الفهرس

صدر للمؤلف

١ ـ الإنسان في الأدب الإسلامي. . تأصيل وتحليل.
نشر مكتبة الطالب الجامعي ـ مكة

٢ ـ أثر الإنسان في الشعر الحديث في سورية.
نشر مكتبة المنار ـ الزرقاء. الأردن

٣ ـ شعر عصر صدر الإسلام من منظور التصور الإسلامي.
نشر مكتبة المنار ـ الزرقاء ـ الأردن

٤ ـ في الأدب الإسلامي تجارب. . ومواقف.
نشر دار القلم ـ دمشق. بيروت